الثقافة المضادة

١٩٢٥-١٩٦٠

منذ أعلن نيتشه موت الإله،
والإنسان الحديث يشعر دوماً بخواء ما في قلب
ثقافته. وقد أطلق الفيلسوف الوجودى جان بول
سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) على هذه الحالة اسم
«الخواء الذى شُكّل على هيئة الرب فى الوعي
البشرى»، حيث كان الإله دائماً يحتل هذه الفجوة،
إلا أنه اختفي وترك خلفه الفراغ.

فقد جعل الإنجاز المدهش للعقلانية العلمية فكرة الإله نفسه أمراً لا يمكن تصديقه، أي أمراً مستحيلاً بالنسبة لكثير من الأفراد المتغربين، حيث إن هذا الموقف قد نما يداً في يد مع كبت الوعي الأسطورى القديم. وأصبح رمز الرب واهناً ومجرداً من المعنى فى غياب عبادة تستدعي الحس بالمقدس. إلا أن معظم المحدثين لم يأسوا لهذا. فقد كان العالم، من أوجه عديدة، أفضل مما كانه سابقاً. وأخذ الأفراد يطورون روحانيات علمانية ويسعون عن طريق الأدب والفن، أو الممارسات الجنسية والتحليل النفسي والمخدرات، أو حتى الرياضة وراء حس بمعنى متسام يضفي على حياتهم القيمة ويصلهم بتيارات أعمق للوجود كان من عادة الديانات السماوية أن تكشفها. وبحلول منتصف القرن العشرين، اعتقد معظم الغربيين أنه لن يكون للدين دور مهم فى أحداث العالم مرة أخرى إلى الأبد. فقد تمت إحالته بحزم إلى المجال الفردى الخاص. وبدا هذا الاعتقاد صائباً لعلمانيين كثيرين ممن كانوا يحتلون مواقع السلطة ويتحكمون في الإعلام والخطاب العام. وكان الدين،

فى العالم المسيحى الغربى، دوماً قاسياً وقسرياً، وتطلبت احتياجات الدولة الحديثة أن يسود المجتمع التسامح. فقد أتت العلمانية لتبقى. إلا أنه فى نفس الوقت، وبمنتصف القرن العشرين، كان العالم أيضاً قد تصالح مع حقيقة أن «الخواء» لم يكن فقط مجرد فراغ روحانى، بل تم تجسيده تجسيداً حياً رهيباً.

ففيما بين عامى ١٩١٤ و١٩٤٥ كان سبعون مليون شخص فى أوربا والاتحاد السوفييتى قد لاقوا حتفهم فى ميتات عنيفة. وقد أتى الألمان الذين كانوا يحيون فى أحد أكثر المجتمعات ثقافة ورقياً فى أوربا، ببعض أسوأ البشاعات. ولم يعد بالإمكان القول بأن التعليم العقلانى سيقضى على البربرية، حيث كشفت الهلوكوست إمكان تواجد معسكرات الاعتقال إلى جوار الجامعات العظيمة. وتكشف الأبعاد المجردة للإبادة النازية أو للجولاق Gulac السوفييتى عن أصولها الحديثة. فلم يكن باستطاعة أى مجتمع سابق أن يحلم بتنفيذ خطط إبادة بهذه الدرجة من المبالغة الرهيبة. وانتهت أعمال رعب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) بتفجير أول القنابل الذرية فى هيروشيما وناجازاكى باليابان. ومثّل هذا،

مرة أخرى، رؤية مرعبة لقوة العلم، ولجرثومة العدمية التي تتواجد في قلب الحضارة الحديثة. فقد كان الناس، ولمدة عقود من الزمن، يحلمون بنهاية العالم الرءيوية (الأبوكالية) التي سيأتي بها الرب. وبدا الآن أن البشر لم يعودوا بحاجة إلى إله لا دنيوى يُنهى العالم. فقد استعملوا علمهم ومهارتهم الفائقة لإيجاد وسيلة كفء لتحقيق ذلك. وأدرك الناس، بتأملهم حقائق الحياة الجديدة هذه، إدراكاً لم يحدث من قبل، قصور روح العقلانية ومواقفها. وحينما واجهتهم الكارثة بكل أبعادها، صمت منطق العقل، فلم يكن هناك - حرفياً - ما يمكن فعله.

وأصبحت الهلوكوست أيقونة الشر في العصر الحديث. فقد كانت نتاجاً جانبياً لسيرورة الحداثة، التي تضمنت دوماً، ومنذ البداية، أفعال تطهير عرقي. واستعمل النازيون كثيراً من إنجازات العصر الصناعي لإحداث تلك الآثار المميتة. فقد كانت معسكرات الموت محاكاة ساخرة مرعبة للمصنع بكل تفاصيله بما في هذا المدخنة الصناعية نفسها. كما استغلوا الخطوط الحديدية استغلالاً تاماً، وكذلك الصناعات الكيميائية المتقدمة، والبيروقراطية، وأساليب الإدارة الكفء. وكانت الهلوكوست نموذجاً للتخطيط العلمي العقلاني حيث يتم إخضاع كل شيء لهدف واحد محدد ومميز بوضوح. وأيضاً كانت الهلوكوست، وقد أنجبتها العنصرية العلمية الحديثة، هي الهندسة الاجتماعية النهائية لما سمي بثقافة «الحدائق» للقرن العشرين. فقد كان العلم نفسه متورطاً تورطاً عميقاً في معسكرات الموت وفي تجارب اليوجينيا التي تتم هناك. وعلى أقل تقدير، فقد برهنت الهلوكوست، أن باستطاعة الأيديولوجية العلمانية أن تحدث من الإبادة ما أحدثته أية حرب صليبية دينية.

وكانت الهلوكوست أيضاً تذكره بالأخطار التي قد تنجم عن موت الإله في الوعي الإنساني. ولقد عرَّف الكهنوت المسيحي جهنم بأنها هي «غياب الرب». وبدت المعسكرات النازية إعادة إنتاج خوارقي (لا أرضي) لصورة الجحيم التي طاردت الأوربيين لمدة قرون. وقد استعادت عمليات السلخ، والتعذيب على المخلعة، والجلد، وأيضاً الصراخ والعويل والسخرية، والممسوخين، والأجساد المشوهة وألسنة اللهب، والهواء النتن، الجحيم المسيحي كما صوره الشعراء

والرسامون والنحاتون وكُتّاب المسرح فى أوربا. وكانت أشويتز التجسيد الظواهرى المظلم الذى أتاح للبشر لمحة لما يمكن أن تكون عليه الحياة حينما يُفقد الحس بالمقدس. فلقد ساعدت الأديان، فى أفضل أحوالها، الناس على غرس تقدير لقدسية البشر بواسطة أساطيرها وطقوسها وممارساتها العقائدية والأخلاقية. وبحلول منتصف القرن العشرين، كان ثمة إحساس بأن العقلانية غير المقيدة قد تجد نفسها مدفوعة لأن تخلق جحيماً أرضياً، الأمر الذى كان هدفاً مواكباً لغيبة الإله. فقد كان ثمة حافز عدمى باستطاعته أن يدفع البشر الذين تملكوا قوة لم يسبق لهم تملكها أن يستهلكوا طاقتهم الإبداعية الهائلة فى التدمير الجماعى. وكان رمز الإله قد وضع حدوداً للقدرة البشرية، كما أنه فرض، فى الزمن المحافظ، قيوداً على ما يستطيع الرجال والنساء فعله. وذكرتهم الوصايا العشر والقوانين أن الدنيا ليست ملكاً لهم يفعلون بها ما شاءوا. أما الإنسان الحديث، فقد تملكه الاعتزاز بالاكتفاء الذاتى والحرية لدرجة أن مجرد فكرة وجود مشرّع إلهى ذى قوة مطلقة أضحت بغيضة له؛ وكان هذا التطور يشكل علامة على التقدم الكبير الذى حققته الكرامة الإنسانية. إلا أن الهلوكوست والجولاق أوضحا ما يمكن أن يحدث حين ينبذ البشر كل هذه القيود ويجعلون من الدولة أو الأمة القيمة العظمى. فقد كان من المحتم إذاً إيجاد أساليب جديدة يتعلم بها الناس احترام قدسية الحياة والدنيا ولا يقدم بها التكامل والمعتقدات الحديثة تنازلات لحساب رموز «ماورائية» غير كافية.

إن معسكرات الموت وسحابة عيش الغراب mushroom cloud أيقونات علينا أن نتأملها كي نتجنب المواقف الشوفينية إزاء الحضارة العلمية الحديثة التى يتمتع بها الكثيرون فى العالم المتقدم. إلا أن هذه الأيقونات باستطاعتها أيضاً أن تمدنا ببصيرة فى الأسلوب الذى ينظر به بعض المتدينين إلى المجتمع العلمانى الحديث الذى يخبرون فيه غياب الإله. فيرى بعض الأصوليين أن الحداثة تتميز بالصلافة والشر والشيطانية؛ كما تملؤهم رؤيتهم للمدنية الحديثة أو الأيديولوجية العلمانية برعب وغضب غامر يماثل تلك المشاعر التى قد تتملك العلمانيين حينما يحدقون فى ظلمة أشويتز. وفى أواسط القرن العشرين كان الأصوليون من الديانات التوحيدية الثلاث قد أخذوا فى الانسحاب من التيار الرئيسى للمجتمع ليخلقوا

ثقافات مضادة تعكس أسلوب الأمور كما يجب أن تكون وفقاً لمعتقداتهم. ولم يكونوا ينسحبون بمجرد دافع من الغل والكبرياء، بل كان دافعهم إلى هذا هو الرعب والخوف. وفهمنا لهذا الرعب والقلق اللذين يتواجدان في لب التجربة الأصولية أمر مهم، إذ إننا يمكننا بهذا فقط تقدير غضب الأصولية الانفعالي، ورغبتها المحمومة لملء الخواء باليقين، واعتقادها الدائم بوجود الشر المستطير.

وكان بعض اليهود قد بدءوا يرون العالم شيطانياً قبل الهلوكوست بوقت طويل. وفي الواقع، فقد عملت البشاعات النازية على تأكيد يقينهم بأن الشر الذي لا خلاص منه لا يقتصر فقط على عالم الأغيار غير اليهودي، بل إن معظم اليهود المحدثين لا يعفون من اللوم. ففي ثلاثينيات القرن العشرين كان بإمكان اليهود المحافظين للثقافة الحديثة الاستغراق الكامل في اليشيفات (المدارس الدينية اليهودية) أو التجمعات الحسيدية Hasidic (الحركات الدينية الصوفية الحلولية). فلم تكن ثمة رغبة أو حاجة لديهم للهجرة إلى الولايات المتحدة أو فلسطين إلا أن أحداث الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين كانت تعني أنه لا خيار للأحياء منهم سوى الهرب من أوربا والاتحاد السوفيتي. ومن ثم، ذهب بعض الحريديم Haredim (اليهود الأرثوذكس) إلى فلسطين حيث التقوا وجهاً لوجه بالصهاينة الذين كانوا متورطين حينذاك في محاولة مستميتة لإنشاء دولة تنقذ اليهود من الكارثة القادمة.

وكانت جماعة إيداح حريديم Edah Haridis، وهي مجموعة يهود أرثوذكس متطرفين وكانوا يتواجدون في القدس ويعارضون الصهيونية بعنف حتى قبل وعد بلفور بزمن طويل قد استقطبت تسعة آلاف فرد فقط من بين ١٧٥,٠٠٠ يهودى كانوا قد قطنوا فلسطين في العشرينيات. ولأن أفراد هذه الجماعة كانوا مستغرقين في نصوصهم المقدسة، فلم تكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية تنظيم أنفسهم سياسياً. بيد أنه سرعان ما لحق بصفوفهم أعضاء من حزب «اتحاد إسرائيل» Agudat Israel الذين كانوا قد تعلموا قواعد اللعبة السياسية الحديثة. وكان «اتحاد إسرائيل» مازال معارضاً للصهيونية، إلا أن الأعضاء حاولوا أو يوازنوا أثر العلمانيين بإنشائهم مستوطناتهم الدينية الخاصة في «الأرض المقدسة» حيث كان

الشباب يدرسون المواد الحديثة إلى جانب التوراة والتلمود. وقد قوبل هذا التنازل بالامتعاض الشديد من جانب الأرثوذكس المتطرفين المتشددين الذين اعتقدوا أن الحزب قد لحق «بالجانب الآخر». وولدت من هذا الصراع الداخلي بين الأرثوذكس حركة أصولية، ألهمها في المقام الأول، وكما يحدث دائماً، النزاع بين أتباع نفس العقيدة.

وكان المتحدث الرئيسي باسم جماعة الرفض الأرثوذكسية هو الحاخام حاييم إليعازر شابيرا Hayim Eleazer Shapira من منكاكش (١٨٧٢ - ١٩٣٧) وهو من أبرز قادة الحسيدية لليهود المجريين الذى بدأ حملة عنيفة ضد حزب اتحاد إسرائيل عام ١٩٢٢. وكان أعضاء الحزب، في نظره، يتعاونون مع الصهاينة ويشوهون تفكير أطفال المدارس الأبرياء «بأعشاب تنوير الأغيار السامة والأسفنتين المرير» وأيضاً «بأغاني تتحدث عن استيطان الأرض، وعن حقول وكروم أرض إسرائيل - تماماً مثل الشعراء الصهاينة». وكانوا بهذا يدنسون الأرض المقدسة المخصصة فقط للصلاة والدراسة المقدسة وهم يحرثون تربتها ذات القدسية. وفى اجتماع لهم فى سلوفاكيا اتفق الراديكاليون الأشد تطرفاً من الحريديم مع الرباني شابيرا ووقعوا حظراً علي أى ارتباط مع حزب اتحاد إسرائيل. وكان رأيهم فى الاتحاد، الذى نشأ خصيصاً لمجابهة الصهيونية، غير دقيق، وكانت هذه المجموعة تعلم أنها تخالف أغلبية اليهود الأرثوذكس فى شرق أوربا وغربها التى كانت ترفض الصهيونية بيد أنها رأت أن حظر شابيرا التعامل مع الاتحاد كان نوعاً من التطرف الشديد. إلا أنهم، ونظراً لرعبهم التلقائي من الصهيونية، رأوا أن لسياستهم الانفصالية ما يبررها. وكان من أوائل من وقعوا الحظر من الحريديم الحاخام الشاب يوائيل موشيه تايتلبوم (١٨٨٨ - ١٩٧٩) الذى أصبح فيما بعد قائد الحسيدية فى ساتمار بالمجر وأشد المعارضين بين كل الحريديم للصهيونية ولدولة إسرائيل.

وحينما تأمل شابيرا وتاتيلبوم سياسة الكيبوتزات الصهيونية فى فلسطين انتابهما نفس الغضب والرعب الذى انتاب الناس فيما بعد حينما سمعوا عن معسكرات الموت النازية. وألقى تاتيلبوم، الذى كان قد نجا وجماعته بصعوبة من معسكرات الإبادة النازية بأن هاجر إلى أمريكا، بمسئولية الهلوكوست كاملة على

خطيئة الصهيونية «التى أغوت أغلبية اليهود بالهرطقة الفظيعة التى لم يسمع مثيل لها منذ خلق العالم.. وليس من المستغرب أن يصب الرب عليهم غضبه». ولم ير هؤلاء الرافضون أى شيء إيجابى فى إنجازات الصهيونية الزراعية، وتحويل الصهاينة الصحراء إلى أرض مزدهرة، أو فى مهارة قادتهم السياسية وهم يحاولون إنقاذ حياة اليهود. فقد رأوا هذا «مستثيراً للغضب» و«انتهاكا» و«الانفجار النهائى لقوى الشر». فقد كان الصهاينة، حتى لو كانوا من المتمسكين بالتقاليد والتعاليم الدينية، ملحدين كفرة، وستظل مغامراتهم شراً لأنها عصيان للرب الذى أمر أن يتحمل اليهود عقاب المنفى وألا يتخذوا أية مبادرة لإنقاذ أنفسهم.

وكانت الأرض بالنسبة لشابيرا، أقدس من أن يستوطنها اليهود العاديون، وليس فقط المتمردون الصهاينة الذين لا يخفون تمردهم. فلا يستطيع العيش هناك سوى اليهود الزيلوتيين (الغيورين) المتدينين الذين يكرسون حياتهم كلها للدراسة والصلوات. وحينما يوجد شيء مقدس مثل «أرض إسرائيل» تحتشد قوى الشر لمهاجمته. وبين شابيرا أن الصهاينة كانوا مجرد التجسيد الخارجى للقوى الشيطانية. ومن ثم، تعج الأرض المقدسة نفسها بالقوى الشريرة التى «تستثير غضب وحنق الرب». فبدلاً من الإله، يقطن الشيطان أورشليم الآن، ومعه الصهاينة «الذين يتظاهرون أنهم (يصعدون) إلى الأرض، بينما هم فى الواقع يهبطون إلى أعماق الجحيم». فقد نبذ الرب الأرض المقدسة وأصبحت جحيما. كما أن «أرض إسرائيل» ليست وطناً كما يزعم الصهاينة، بل هى أرض معركة. والأشخاص الوحيدون الذين يمكنهم سكناها فى هذه الأيام، ليسوا مالكى المنازل والفلاحين، بل «المحاربين المقدسين الذين يحركهم حماسهم من خشية الرب». فهم رجال شجعان خرجوا «للقتال فى الحروب العادلة فى سبيل ما بقى من إرث الرب فى جبل أورشليم المقدس». أما المغامرة الصهيونية، فقد ملأت شابيرا بالرعب الوجودى. كما رأى تايتلبوم الصهاينة التجسيد الأحدث للكبر الشرير الذى أتى دوماً بالنوازل على الشعب اليهودى، متمثلاً فى برج بابل، وعبادة العجل الذهبى وثورة باركوشبا Bar Kochba فى القرن الثانى بعد الميلاد الذى كلف اليهود حياة الآلاف، وإخفاق الشابتاى زيفى التام. بيد أن الصهيونية هى الهرطقة الكاملة، فقد كانت الصلف المتبجح الذى هز أساس العالم نفسه، فلا عجب إذاً أن أرسل

الرب الهلوكوست.

لذا، وجب على المؤمنين أن يفصلوا أنفسهم تماماً عن هذا الشر. وكان الحاخام يشياهو مارجوليس Yeshayahu Margolis ، أحد «الحسيدين» الغيورين في القدس، والذى كتب في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، أحد أشد المعجبين بشابيرا وتايتلبوم وأراد أن يصبح تايتلبوم قائداً لاتحاد الحريديم (الأرثوذكس) وابتدع مارجوليس تاريخاً مضاداً لإسرائيل الذى أكد على وجود أقلية معدة للمعركة شعرت على مر القرون أن عليها أن تنهض وتحارب اليهود الآخرين باسم الرب. فقد قتل اللاويون ثلاثة آلاف إسرائيلى من الذين عبدوا العجل الذهبى حينما ذهب موسى ليتلقى التوراة على جبل سيناء، وفضلهم الرب على باقى القبائل لهذا السبب وليس بسبب خدمتهم في المعبد. وكان موسى مؤمناً زيلوتياً (غيوراً) حارب الآخرين من اليهود طيلة حياته. كما ثار فنحاس Phinihas حفيد هارون على زميرى Zimiri رغم أنه كان أميراً لإسرائيل. وحارب اليشع Eijah أهاب Ahab وقتل أربعمائة وخمسين من أنبياء بعل. فكان هؤلاء الزيلوتيون (الغيورون) الذين كانوا يعبرون عن عاطفتهم تجاه الرب بالغضب الجامح دائماً، هم اليهود الحقيقيون «بقايا المؤمنين. وكان عليهم أحياناً قتال الأغيار، وأحياناً أخرى محاربة اليهود. إلا أن المعركة واحدة دائماً. ومن ثم، عزل اليهود المؤمنون أنفسهم، جذراً وفرعا، عن اليهود من أمثال أعضاء حزب «اتحاد إسرائيل» الذين نبذوا الرب واتجهوا إلى الاعتقاد في الشيطان. فهم بتعاونهم مع الصهاينة «قد أضروا باليهود أكثر من أشرار الأرض جميعاً». ومن ثم، فالارتباط بهم خطيئة وتحالف مع الشيطان.

ومن هنا وجبت التفرقة. فكما أن التوراة تفصل المقدس عن الدنيوى، والنور عن الظلام، والحليب عن اللحم، ويوم السبت عن باقى أيام الأسبوع، فيتحتم على المؤمنين الانفصال عمن سواهم. فلن يعود المرتدون إلى القطيع أبداً. وإن حياة الحريديم (الأرثوذكس) الحقيقيين متعبدين بعيداً عن هؤلاء اليهود الأشرار، لهى ببساطة تعبير جسدى عن الهوة الأنطولوجية التى تتواجد بينهم على المستوى الميتافيزيقى. إلا أن هذه الرؤية المخيفة كانت تعنى أنهم بحياتهم وسط هذا الشر

الشيطاني، تصبح لكل تفاصيل حياة المؤمنين أهمية كونية. فلابد وأن تكون أمور الملبس، وطرق الدراسة، وحتى أسلوب قص اللحى صحيحة صحة مطلقة. فالحياة اليهودية كانت تحفها المخاطر المهلكة، لذا حُظِر أى تجديد حظراً تاماً. فمثلاً كان ينص على أنه «لابد وأن يُراعى أن تغطى طية صدر السترة اليمنى الطية اليسرى، حيث تغطى يد الرب الأعلى المرفوعة في حيه السامي، الجانب الأيسر الذى يمثل السطوة التى هى سطوة حافز الشر». فحيث سعى الأصوليون البروتستانت إلى ملء الفراغ بالبحث عن اليقين المطلق الذى تمثله صحة التعاليم المتشددة، سعى المعادون للصهيونية من الأرثوذكس المتطرفين عن اليقين فى الاتباع الدقيق للقانون الإلهى والعادات والتقاليد. ويكشف هذا النوع من الروحانية عن خوف يمكن تهدئته فقط بالحفاظ المبالغ فيه على دقائق الحدود القديمة، وبإقامة حدود جديدة، وفصل جامد قاطع، وتمسك قوى لا عقلانى بالتقاليد.

ورؤية الرفض هذه غير مفهومة كلية لليهود الذين ينظرون إلى الإنجاز الصهيونى على أنه رائع وإنقاذى. ويلخص هذا الموقف المعضلة التى كان على اليهود والمسيحيين والمسلمين مواجهتها في القرن العشرين؛ إذ توجد هوة لا يمكن عبورها بين الأصوليين وبين هؤلاء الذين يتبنون توجهات إيجابية تجاه العالم العلمانى الحديث. فإنه من المتعذر على المجموعات المختلفة تبنى نفس المنظور تجاه الأمور. كما أن الجدالات العقلانية غير مجدية لأن الخلاف ينبع من مستويات غريزية عميقة فى العقل البشرى. فحينما تأمل شابيرا وتايتلبوم ومارجوليس أنشطة الصهاينة البراجماتية الهادفة التى تحركها العقلانية رأوها على أنها لا ربانية، ومن ثم شيطانية. وحينما سمعوا فيما بعد عن نشاطات النازيين فى معسكرات الموت المعقلنة العملية الهادفة بأسلوب لا هوادة فيه، خبروا هذه الأمور مثل ما خبروا المغامرة الصهيونية. واعتقدوا أن كليهما يكشف غياب الرب، ومن ثم كانت هذه الممارسات شيطانية وعدمية تطأ جميع القيم التى يعتز بها الحريديم وطأ مدمراً. وإلى يومنا هذا نجد أن الملصقات وكتابات الجدران الجرافيتية فى أحياء القدس المضادة للصهيونية تساوى القادة السياسيين لدولة إسرائيل بهتلر. ويجد الشخص الغريب هذه المعاملة صادمة ومزيفة وحمقاء، إلا أنها تكشف الرعب العميق من العلمانية الذى قد يسكن قلب الأصوليين.

فمجرد فكرة إقامة مرتدين يهود دولة علمانية في «أرض إسرائيل» هي انتهاك لأحد التابوهات. إذ إنه قد أصبح للأرض المفقودة على مر القرون قيمة رمزية صوفية (mystical) أوجدت صلة بينها وبين الرب والتوراة بأسلوب يماثل الثالوث المقدس. ومن ثم يثير انتهاكها من قِبل أناس لا يُخفون حقيقة أنهم قد نبذوا الدين نفس الخليط من الغضب والرعب اللذين يسببهما انتهاك صريح مقدس، ذلك الفعل الذي خبره اليهود خاصة على أنه نوع من الاغتصاب. وكان كلما اقترب الصهاينة من تحقيق أهدافهم، زادت حالية اليأس الغاضب الذي عاني منه بعض الأرثوذكس الراديكاليين حتى إنه في عام ١٩٣٨ انفصل أمرام بلاو Amram Blau وأحارون كاتزنلبوجن Aharon Katzenellenbogen اللذان كانا قد تركا «اتحاد إسرائيل» لتعاونه المفترض مع الصهاينة عن اتحاد الحريديم وكانت الجماعة اليهودية قد فرضت مؤخراً ضريبة خاصة لتغطية نفقات دفاع منظم ضد الهجمات العربية، وامتنع هؤلاء الرافضون عن الدفع. ولتبرير امتناعهم، استشهد بلاو وكاتزنلنبوجن بقصة تلمودية مؤداها أنه حينما كان الحراس المسلحون ينظمون دفاعاً عن إحدى المجموعات المدينية في فلسطين الرومانية في القرن الثالث، قال لهم حكيمان يهوديان «لستم حراس المدينة، بل مخربيها. فإن العلماء من دراسي التوراة هم حماتها». وأطلقت الجماعة الجديدة التي شكلها بلاو وكاتزنلنوبوجن على نفسها لقباً آرامياً هو Neturei Karata أو حماة المدينة، وكان مؤدى هذا هو أن نشاطات الصهاينة القتالية ليست هي التي ستحمي اليهود بل اتّباع الأرثوذكس الورع الدقيق للتعاليم الدينية. فقد مُنح اليهود التوراة، ومن ثم فقد ولجوا منطقة لم تلجها باقي الأمم. ولا يجوز لهم أن يتورطوا في السياسة أو المعارك المسلحة، لكن عليهم أن يكرسوا أنفسهم للأمور الروحانية. فإن الصهاينة، بإعادتهم اليهود إلى عالم التاريخ، ينبذون مملكة الرب ويدخلون مرحلة لا معنى لها وجودياً بالنسبة لهم وهم بهذا ينكرون طبيعتهم ويوردون اليهود مورد الهلاك.

وكان كلما زاد نجاح الصهاينة ازدادت حيرة «حماة المدينة»، وتساءلوا عن سر ازدهار الأشرار. وحينما تأسست دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد الهلوكوست بفترة وجيزة لم يكن بوسع تايتلبوم وبلاو سوى الانتهاء إلى أن الشيطان قد تدخل في التاريخ مباشرة ليقود اليهود إلى الكفر ومملكة الشر التي لا معنى لها. وقد

استطاع معظم الأرثوذكس والأرثوذكس المتطرفين تقبل الدولة الجديدة؛ وأعلنوا أنها غير ذات أهمية دينية، وأن اليهود الذين يعيشون فيها مازالوا في المنفى تماماً كما كانت حالتهم في الشتات. فإن شيئاً لم يتغير. وكان «اتحاد إسرائيل» على استعداد للدخول في التحاور والمفاوضات مع الحكومة الإسرائيلية كي يحمى المصالح الدينية لليهود تماماً كما فعلوا مع حكومات الأغيار في أوربا. إلا أن «حماة المدينة» لم يتقبلوا شيئاً من هذا القبيل، فقد قاموا بعد إعلان الدولة مباشرة في ١٤ مايو عام ١٩٤٨ بفرض حظر على المشاركة في الانتخابات ورفضوا أى تمويل حكومي ليشيفاتهم وأقسموا ألا تخطو أقدامهم أية مؤسسة حكومية. وقاموا أيضاً بتصعيد هجومهم على «الاتحاد» الذى رأوا أن قبوله للدولة هو رأس الإسفين المدبب. وقال بلاو «لو أننا قللنا النزر اليسير من بغضنا للشر والغواة والمفسدين، وإذا نحن كسرنا هذا الفصل الذى تحتمه علينا توراتنا المقدسة.. فسيفتح الطريق لكل ما هو محظور، لأننا سنترك الصراط المستقيم الضيق إلى الصراط المعوج الشرير». فالمغامرة الصهيونية التى اجتذبت كل اليهود تقريباً بعيداً عن الرب، كانت تدفعهم في اتجاه إنكار عدمي لكل القيم الرفيعة المقدسة.

وكانت كلما رسخت جذور الصهيونية في الدولة الجديدة وكلما ازداد نجاح الدولة أصبح استنكار «حماة المدينة» أكثر عمقاً وتمسكهم بالمبادئ أكثر صرامة. فلم تكن ثمة فرصة للتصالح، لأن دولة إسرائيل كانت من خلق الشيطان. وكما بيّن تايتلبوم فإنه يستحيل على اليهودى «أن يتمسك بالإيمان بالدولة وبالإيمان بالتوراة المقدسة لأنهما طرفا النقيض الكاملان». فحتى لو كان السياسيون والوزراء حكماء تلموديين ورعين في اتباعهم الوصايا العشر، فستظل الدولة كفراً شيطانياً لأنها تمرد على الرب ولأنها حاولت انتزاع الخلاص وتقديم آخر الأيام عن موعده. ولم يكن لدى «حماة المدينة» وقت أو صبر على «اتحاد إسرائيل» في تمرير تشريعات دينية من خلال الكنيست. فلم تكن محاولة الحد من استعمال المواصلات العامة يوم السبت بالقانون، أو ضمان إعفاء طلبة اليشيفات من الجندية عملاً ورعاً. إذ إن هذا كان مجرد تحويل للقانون الإلهى إلى قانون بشرى وكان هذا مرادفاً لإبطال التوراة وانتهاك التشريع Halakhah. وفى هذا الضوء قال الحاخام شيمون إسرائيل بوسن أحد كبار الباحثين في جماعة حسديم ستمار -Satmar Hasi

dim في نيويورك عن أعضاء «حزب الاتحاد» في الكنيست «سحقاً لهم هذا العار، فلأن يجلس من يرتدون تمائم الصلاة في مجمع الأشرار الذي يدعى الكنيست كل يوم، ويوقعون بأسمائهم على زيف، ويزيفون توقيع الرب المقدس جل جلاله فلتنتقم السماء. فإنهم يقررون ما إن كان بالإمكان وطء حقيقة التوراة بالأقدام أو منح التوراة السلطة عن طريق أخذ الأصوات».

بيد أن الجميع، بمن فيهم «حماة المدينة» أحسوا جاذبية الصهيونية. فثمة أهمية لوصف بلاو الصهاينة بالغواية. فإن وجود دولة يهودية في «أرض يهودية» غواية تجتذب الروح اليهودية بشدة. ويمثل هذا جزءاً من معضلة الأصولية. فكثيراً ما يشعر الأصوليون بسحر وجاذبية الإنجازات الحديثة التي يحاولون الابتعاد عنها وقد تملكهم الرعب. فتصوير الأصوليين البروتستانت للمسيخ الدجال كشخص مخادع وساحر مقنع يعكس شيئاً من نفس الصراع. فثمة توتر قابل للانفجار في الرؤية الأصولية. وكما أوضح بلاو، فإن ورع المعادين للصهيونية هو «كراهية» قائمة على مبادئ، ويصحب الكراهية دوماً الحب غير المعلن. فرغم أن الحريديم (الأرثوذكس) يشعرون بالغضب الشديد حينما يتأملون دولة إسرائيل، فإنهم لا يقتلون؛ ويكتفون إلى يومنا هذا بإلقاء الحجارة على السيارات في إسرائيل التي يخرق أصحابها القانون بقيادتها يوم السبت، أو يهاجمون منزل حريدي Haredi لا يحيا أصحابه وفقاً للمعايير المتوقعة كأن يقتنوا جهاز تليفزيون أو يسمح فيه الزوج لزوجته بارتداء ملابس غير محتشمة. وينظر لأعمال العنف هذه على أنها «تقديس لاسم الرب» وضربة موجهة إلى قوى الشر التي تحيط بالحريديم من كل النواحي وتهدد بابتلاعهم. بيد أنه ليس من المستحيل القول بأن هذه الهجمات العنيفة هي محاولة لقتل توق مدفون وجاذبية في أعماق القلوب.

ويكون الحريديم المعادون للصهيونية أقلية ضئيلة. فهناك ما يقرب من عشرة آلاف فقط في إسرائيل وبضع عشرات الألوف في الولايات المتحدة. إلا أن تأثيرهم كبير. فرغم أن معظم الأرثوذكس المتطرفين يؤازرون الصهيونية، إلا أن «رعاة المدينة» والراديكاليين الآخرين من أمثال حسيديم ستمار يجابهونهم بالأخطار لتعاونهم الوثيق مع الدولة. كما يذكّر انسحابهم من دولة إسرائيل، الذي يصرون عليه، الحريديم الأقل حماساً، والذين ما فتئوا يشعرون بفقدان

نقائهم وأصالتهم نتيجة لتعاونهم مع الدولة، أنه مهما بلغت قوة ونجاح الدولة بالمعايير الدنيوية، فمازال اليهود فى حالة منفى وجودى، وأنهم ليس باستطاعتهم المشاركة المشروعة فى الحياة السياسية والثقافية للعالم الحديث.

ويرادف رفض الحريديم تقبل إسرائيل، سوى على أنها خلق شيطاني، الفعل التمردى الدائم ضد الدولة التى يعيش فيها الكثيرون منهم. فحينما يلقون بالأحجار على السيارات أيام السبت، أو يمزقون الملصقات التى تعرض النساء شبه العاريات في إعلانات عن ثياب البحر، فإنهم بذلك يعلنون عصيانهم لروح الدولة اليهودية حيث المعيار الوحيد لأى فعل هو فائدته العقلانية العملية. فالأصوليون فى الديانات السماوية الثلاث ثائرون ضد منطق العقلانية البراجماتي المهيمن على المجتمع الحديث الذى يُقصى العنصر الروحاني ويرفض القيود التى يفرضها المقدس. إلا أنه نظراً لعظم قوة المؤسسة العلمانية تجد الأغلبية نفسها مجبرة على قصر ثورتهم على أفعال رمزية. كما يعمل إحساسهم بالضعف، واعترافهم الضمنى باعتمادهم على الدولة، فى حالة الحرب مثلاً، على تزايد غضب الأصوليين. ومن ثم، يقتصر احتجاج معظم الأصوليين على تصميمهم على الانسحاب من الدولة العلمانية وعلى تأسيس ثقافة مضادة تتحدى قيمها فى كل المناحى. ويحفز مجتمع الحريديم البديل الرغبة فى ملء الفراغ الذى خلقته الروح الحديثة. وهذا الفراغ، بالنسبة لليهود بعد الهلوكوست، فراغ نابض وحى بشكل مرعب. فيشعر الذين نجوا أن عليهم إعادة إقامة المجالس الحسيدية واليشيفات المناجدية Misnagdic فى إسرائيل والولايات المتحدة. ويعتبر هذا الفعل فعلاً إيمانياً يدينون به لملايين الحريديم الذين ماتوا فى معسكرات هتلر، وأيضاً فعل عصيان ضد قوى الشر. ويعتقد هؤلاء أنهم يوجهون ضربة نيابة عن المقدس بمنحهم المؤسسات الحريدية فرصة جديدة للتواجد، وأيضاً فرصة لإحياء هذا العالم الميت وجعله أقوى من أى وقت مضى. لذا أقيمت يشيفات جديدة فى إسرائيل والولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. ففى عام ١٩٤٣، أنشأ الحاخام آرون كوتلر (١٨٩١-١٩٦٢) أول يشيفا لتوانية حينما أنشأ بيس مدراش جدولاه Bais Midrash Gedolah فى نيوجرسى على نموذج يشيفات فولجين Volozhim ومير Mir، وسولبودكا Solbodka. وأصبحت يشيفة بنى براك Bnei Brak مدينة

للتوراة قرب تل أبيب وجذبت يشيڤاتها المؤسسة حديثاً طلبة من جميع أنحاء إسرائيل والشتات. وكان الحاخام آبلاهام ييشاياهو كارليتز (١٨٧٨ - ١٩٤٣) هو روحها الموجهة، وكان أيضاً يعرف باسم هازون إيسن (وهو أحد عناوين كتبه). وتسببت هذه المؤسسات في أن تجعل اليشيڤا أكثر مركزية في حياة الحريديم من أي وقت مضى. وأصبحت دراسة التوراة تستمر طوال الحياة. وتستغرق الوقت كله. ويواصل الرجال الدراسة بعد الزواج وتقوم زوجاتهم بالإنفاق عليهم. وتصبح كوادر الباحثين الذين يعيشون في اليشيڤات ويغرقون أنفسهم تماماً في دراسة النصوص المقدسة على غير اتصال بالعالم الخارجي سوى في أضيق الحدود، الحراس الجدد لليهودية.

واعتقد كوتلر أن تلاميذه يحافظون على وجود العالم أجمع. فهدف الرب من خلق السماوات والأرض هو أن يدرس الرجال التوراة. فبدراسة الشعب اليهودى للقانون المقدس (الناموس) آناء الليل والنهار يصبح بإمكانه تحقيق مهمته بالنسبة للعالم. فإن هم توقفوا «فإن الكون سرعان ما سيدمر». وقد نشأ هذا التدين نتيجة للاقتراب المباشر الوثيق من العدمية التامة. ومن ثم، اعتبرت أية دراسة علمانية إهداراً للوقت وأيضاً مرادفة للذوبان في ثقافة الأغيار القتلة. كما أن أى شكل من أشكال اليهودية مثل الصهيونية المتدينة، والإصلاح، والمحافظين، والأرثوذكسية الجديدة، التى تحاول استيعاب أوجه من الثقافة الحديثة، غير شرعية. فلا يجوز أن توجد مثل هذه التنازلات مع عالم كان لتوه قد كرس نفسه لمحق اليهود. وعلى اليهودى الحق عزل نفسه عن هذا العالم وتكريس نفسه كلية للنصوص. وعكست يشيڤات ما بعد الحرب، بشكل يميزه الأسى، الروحانية الأصولية. فالنصوص المقدسة هى كل ما تبقى من مجابهة اليهود الساحقة مع الحداثة أثناء القرن العشرين. لقد تم قتل ستة ملايين يهودى، ودمرت كل اليشيڤات والمؤسسات الحسيدية، ومعها عديد من الأعمال الكلاسيكية، للعلوم اليهودية؛ كما اختفى أسلوب حياة الغيتو إلى الأبد ومعه المعرفة الحميمة بقرون من الطقوس الموروثة. وإزاء ما قام به الصهيانة من تدنيس الأرض المقدسة، فإن ما يستطيعه اليهودى الغيور المتحمس المتدين هو التمسك بالنصوص التى هى حلقة الصلة الأخيرة بينه وبين المقدس من أجل ملء الفراغ.

وكان التدمير الذى أحدثته الهلوكوست قد غير من طبيعة دراسة التوراة. ففى عالم الغيتو، كانت كثير من الطقوس والممارسات الموروثة متقبلة كأمر مفروغ منه، ولم يكن ثمة أسلوب بديل للحياة أو لاتباع التوراة. وكانت الأجيال الأولى من اللاجئين يعرفون بدقة كيف تمارس هذه الطقوس. إلا أن أبناءهم وأحفادهم فقدوا الرغبة في إعادة خلق أسلافهم الذين قتلوا، ولم يكن لديهم علم تلقائي بهذه العبادات المضادة، والتى كانت بحاجة إلي أن تدون تدويناً رسمياً، وكانت الوسيلة الوحيدة لاستعادة عالم التوراة الذى كان فى طريقه إلى الأفول هى تمشيط النصوص بحثاً عن فتات المعلومات المتناثرة. ومنذ خمسينيات القرن العشرين، أصبح في اليشيفات فيض من الدراسات المتخصصة المحددة التي تصف بالتفصيل الدقيق المحدد أساليب وممارسات كانت طبيعية ومتعارفاً عليها فى عالم ما قبل الهلوكوست فى أوربا. وكان لكل جيل تالٍ أن يعتمد على هذه الأبحاث أكثر من الأجيال التى سبقته. ونتيجة لما حدث من تدمير، أصبحت الحياة اليهودية مرتبطة بالنص ومعتمدة على الكلمة المكتوبة أكثر من أى وقت مضى.

وتميزت الأصولية اليهودية بصرامة جديدة، فبحلول ستينيات القرن العشرين لاحظ الحاخام سيملا إلبرج، وكان فى زيارة لبنى براك، أن ثمة «ثورة واسعة فى الانحياز الكلى للحياة الدينية». فقد كان يهود «مدينة التوراة» يتبعون القانون الدينى بصرامة أكثر من أى وقت مضى. وكان هذا الجهد لإطاعة القانون، بشكل كامل أكثر من ذى قبل، بطولياً؛ فقد كان أسلوباً لتجسيد المقدس فى عالم كان قد أخلى من الرب بشكل فظ. وكان الحريديم في بنى براك يجدون أساليب لدقة اتباع الشكليات والالتزام الدقيق بأمور مثل قواعد الطعام والتطهر حتى لو أدى ذلك إلى جعل حياتهم أكثر صعوبة.

وكان الحازون إيسن هو من أسس هذه النغمة لدى وصوله لأول مرة إلى فلسطين فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وكانت جماعة من الصهاينة قد توجهت إليه بتساؤل؛ فقد كانوا يريدون اتباع القانون الزراعي اليهودى فى مستوطنتهم وأن يزرعوا الأرض طبقاً للتوراة. وكان هذا يعنى أن تترك أرضهم مرة كل سبع سنوات دون زراعة لإراحتها كما ينص القانون. ولو أنهم اتبعوا هذه «السبتية» لتسبب هذا فى متاعب كثيرة، بالإضافة إلى أن تلك الممارسات مغايرة تماماً لأساليب الزراعة

الحديثة التى كانت مصممة على أساس إعطاء أعلى عائد وكفاءة. وكان الحاخام كوك قد وجد منفذاً قانونياً للمستوطنين، إلا أن الحازون إيسن عارض هذا التسيب بصلابة. وقال إن التحدى كان يكمن بالتحديد فى الصعوبة. فقد كان «القانون» يتطلب أن يضحي الزارع بازدهاره من أجل خير أعلى. وكان المقصود بالسنة «السبتية» الاحتفاء بقدسية الأرض كي يدرك اليهود مالها من حرمة مثل جميع الأشياء المقدسة لأنها، جوهرياً، منفصلة عن احتياجات ورغبات الأفراد. فلا يجوز أن يستغل اليهود الأرض من أجل منفعتهم فقط، وأن يحلبوها من أجل إنتاجية متزايدة، وأن يخضعوها لمشاريع أكثر فائدة اقتصادياً. فعلى المزارع المتدين بحق أن يتحدى مادية الرواد العلمانيين العقلانية، والتي قد تكون صهيونية إلا أنها ليست يهودية على الإطلاق.

وفى بنى براك تولى الحازون إيسن الإشراف على ما أسماه الحاخام إيلبرج «عالم التشدد» وعلم تلاميذه أن يجدوا «أكثر الطرق تشدداً وصرامة وحرصاً على الشكليات» فى اتباع الأوامر. وسيميزهم هذا النظام عن الروح البراجماتية للحداثة بشكل جذرى. ولم يلق هذا النمط من التشدد قبولاً من المؤسسة الحاخامية فى المجموعات اليهودية التقليدية فى أوربا حيث احترم الحاخامات وساوس الأفراد بشأن دقائق «القانون»، إلا أنهم لم يكونوا ليسمحوا بفرض هذه الصرامة على المجموعة ككل خوفاً من الانقسامات فمثلاً، لن يتمكن اليهود الذين قدموا فى مجموعات ذات معايير أشد صرامة بشأن ذبح الحيوانات من الأكل مع اليهود الذين يفسرون تلك التعاليم بشكل أكثر رحابة. كما أن الصرامة المفرطة مهينة لحكماء الماضى العظام الذين لم يتشددوا فى الشكليات فى مثل هذه الأمور. فقد كان هؤلاء الحاخامات يميلون إلى التساهل فى تفسير التوراة، ولا يجوز للصفوة الروحانية أن تجعل من اتباع التعاليم أمراً محالاً بالنسبة لليهود العاديين.

وكانت الصرامة الثورية لبنى براك جزءاً من الثقافة المضادة التى حاول الحريديم خلقها. فقد أسست معياراً دينياً نقيضاً لروح الحداثة المعقلنة التى جعلت من الكفاءة والبراجماتية المعايير الأساسية. ففى الوقت الذى كان يهود الإصلاح، أو المحافظون، أو الأرثوذكس الجدد يحاولون الاستغناء عن بعض أجزاء القانون وإيجاد حياة دينية أكثر استرخاء وعقلانية، رفض الحريديم الذين التزموا التزاماً صارماً

بالعالم أية تنازلات لمعايير مجتمع التيار الرئيسي. ولاحظ الحاخام إيلبرج في زيارته لبني براك أنهم قد أصبحوا «عالماً مستقلاً». فلم ينسحب اليهود الحريديم فقط من المجتمع الحديث، بل إنهم عزلوا أنفسهم عن اليهود الأقل صرامة. وأصبحوا بحاجة إلى «جزارين مختلفين، ومحلات تراعي طعام الكوشر بشكل أكثر تشدداً، وحمامات طقوسية خاصة. فقد كانوا يطورون هوية مميزة في مواجهة مزاج العصر السائد».

وبالمثل، فلم يكن الطلبة في اليشيفات يدرسون من أجل الحصول على معلومات يمكنهم الاستفادة بها فيما بعد كما في حالة الكليات العلمانية. فلا يمكن مثلاً، تطبيق الكثير من قوانين التوراة التي تتعلق بطقوس المعبد والأضحيات الحيوانية حالياً. كما أن قوانين الضرر والتعويض عن الأذى لن يطبقها سوى المخلِّص، (المشيح) حينما يعود لإرساء مملكة الرب. إلا أن الطلبة كانوا يقضون الساعات والأيام وحتى السنين وهم مستغرقون في مناقشات زخمة حول هذه التشريعات البالية مع مدرسيهم، لأنها قوانين الرب. فإن ترديد الألفاظ العبرية التي تكلم بها الرب (بمعنى ما) مع موسى على جبل سيناء هي نوع من التواصل مع المقدس. كما أن تفحص كل تفاصيل القوانين يمكّن الطلبة من الولوج الرمزي إلى عقل «الرب». ففي عصر نُبذ فيه القانون الإلهي على هذا النحو المرعب، يصبح على اليهود اتباعه بدقة أكثر من أي وقت مضى. كما أن اعتياد الطالب أكثر على آراء حاخامات الماضي العظام التشريعية، يعتبر أسلوباً لإدخال هذا الموروث في عقله وقلبه لإقامة تواصل مع الحكماء. وكانت طرق الدراسة في اليشيفات بنفس درجة أهمية المادة المدروسة، ولم يكن هدف التعليم هناك هو تسيير الحياة في هذا العالم بل السعي وراء المقدس في مجتمع حاول إبعاد الرب. وكان كل شئ في اليشيفات مختلفاً عنه في العالم العلماني الخارجي حيث كان الرجال الذين كانوا يعتبرون الجنس الأسمى يخرجون للعمل في الخمسينيات، بينما تظل النساء معزولات في المنازل. أما بين الحريديم فإن الجنس الأدنى هو الذي يخرج إلى مايعتبره الأغيار العالم «الحقيقي»، بينما يقضي الرجال حياتهم في عزلة وحماية مع حقيقة اليشيفا الحقة. فقد كان الجيش في إسرائيل العلمانية في سبيله لأن يصبح مؤسسة شبه مقدسة، وكان التجنيد إجبارياً للجنسين، وكان

الرجل يظل احتياطياً في وحدته العسكرية طوال سنوات حياته النشطة كلها. أما طالب اليشيفا، فكان معفواً من التجنيد، وأعطى ظهره لقوات الدفاع الإسرائيلية واعتقد أنه هو «الحامي» الحق للشعب اليهودى الذى يقف في الصفوف الأمامية في الحرب المقدسة ضد قوات الشر التى كانت تضغط بعدوانية على اليشيفا من جميع الاتجاهات.

وبالنسبة للحريديم، فإن الحداثة، حتى في دولة إسرائيل، هي مجرد تجليات الجالوت Galut أو حالة النفي والاغتراب والابتعاد عن الرب. وقد كشفت الهلوكوست عن طبيعة هذه الحالة الجوهرية الشريرة. فليس من المفترض أن يشعر اليهودى أنه ينتمى لهذا العالم؛ رغم أن إحدى المفارقات هي أن التعليم التوراتى كان يموّل بإغداق في إسرائيل والولايات المتحدة، وازدهر هناك أكثر من أى وقت سابق. إلا أن الطلبة كانوا يتعلمون أن ينعزلوا عن العالم العلمانى. وكما بين أحد التربويين الحريديم، فإن اليشيفات لم تعلم الشباب «التكريس الكلى للتوراة» فقط. بل أيضاً كيفية «الابتعاد عن تجارب هذه الحياة». وكانت أسوار اليشيفات تذكرة دائمة بأن التوراة لا يمكن أبداً أن تتآلف مع الجالوت (حالة الابتعاد عن الرب). وهدفت هذه الثقافة المضادة إلى زيادة انعزال الطلبة عن التيار الرئيسى. وكما لاحظ آفرام وولف في كتابه «التعليم في مجابهة الجيل» (١٩٥٤) فقد كرّس طالب اليشيفا لمهمة إحياء عالم آبائه وأجداده بالتقابل مع عدم مبالاة العلمانيين بهذا. وقال «فى هذا كله، نحن نقف بمفردنا. فنحن نختلف عن كل من حولنا من مؤرخين مصلحين.. وشعراء). الذين ينظر إليهم جميع الآخرين على أنهم عظماء». فحتى في الدولة اليهودية كان الحريديم منعزلين: «إن الشوارع يطلق عليها أسماء أفراد من التاريخ ننظر إليهم نحن نظرة سلبية مطلقة، إننا نقف وحدنا».

ويتمثل تمرد الحريديم على الحداثة العقلية إلى حد كبير في الانعزال. إلا أنه في هذه الفترة عمد الحسيديم اللوبافيتش الذين طالما أضمروا نزعات قتالية في «حبد» روسيا إلى تبنى الهجوم فقد كان البلشوفيك قد قاموا بإبادة حبد تقريباً في روسيا. وأغلقت المدارس اليهودية واليشيفات، وأدينت الدراسات التوراتية باعتبارها مضادة للثورة، وكان التحدى يعنى التجويع والسجن وحتى الموت. ورأى

الربى السادس، جوزيف إيزاك سنورسن (١٨٨٠ - ١٩٥٠) هذه الإجراءات على أنها «آلام المخاض للمخلّص» (المشيح). فلم يمكن كافياً أن ينعزل المتدينون عن العالم: فلابد للحسيديم أن يحاولوا فتح (هزيمة) العالم الحديث من أجل الرب. وقام الربى بتنظيم عالم يهودى سرى فى روسيا قام فيه خريجو يشيڤات حبد بتدريس التوراة والتلمود، وتعليم شباب اليهود اتباع التعاليم والأحكام. وواصل جوزيف إيزاك سنورسن عمله من بولندا بعد نفيه، وقام بإعادة تنظيم منشآته ومركزتها بأساليب حديثة، واستعمل تقنيات الاتصال الحديثة ليبقى على اتصالاته مع اللوباڤيتش فى جميع أنحاء العالم. وحينما أجبر الربى على الفرار من هتلر ووصل إلى الولايات المتحدة واصل مهمته وبدأ حملة دعائية لاستعادة اليهود الذين اندمجوا فى المجتمعات الحديثة، وشعروا بأنهم خرجوا عن أسلوب حياتهم فى العالم. وكان ثمة امتداد وتجاوز بدلاً من الانعزال. وفى عام ١٩٤٩ اتخذ الربى خطوة هامة بأن أنشأ كفار حبد، أو أول مستوطنة حسيدية فى إسرائيل. ولم تكن حدة عدائه للصهيونية قد قلّت مقدار ذرة، لكنه اعتقد بوجوب وصول رسالته إلى اليهود فى «أرض إسرائيل» المنتهكة فى تلك الأيام الأخيرة.

وتوفى الربى عام ١٩٥٠، وتلاه صهره الربى مناحم مندل سنيرسون (١٩٠٤ - ١٩٩٤). وكان توليه تطوراً يبعث على الدهشة، ويعكس استعداد حبد لاحتضان العالم العلمانى من أجل تغييره. ولم يكن الربى السابع قد تعلم فى اليشيڤا، بل تلقى تعليماً حديثاً. فقد درس الفلسفة اليهودية فى برلين والهندسة البحرية فى السوربون. وحينما وصل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤١ عمل فى الأسطول البحرى، إلا أنه كان يساعد صهره أيضاً فى مهمته، أى أن الربى كان نتاج العالم الحديث. واستطاع سنيرسون تجنيد الحسيديم التابعين له فى حملة صحفية واسعة وكفء من أجل خلاص اليهود فى جميع أنحاء العالم. ولم يقتصر على أن يجعل من طلبة اليشيڤات فقط جنود الخلاص الوحيدين فى جيشه، بل تخطاهم إلى كل فرد يهودى. وأعد الربى حملته بمهارة، وقام فى السبعينيات بشن هجوم مضاد ضد العلمنة والذوبان. وأرسل بآلاف من شباب اللوباڤيتش من الرجال والنساء لإنشاء منازل حبد فى المدن البعيدة حيث كان اليهود، إما معلمنين، أو يمثلون أقلية. وكانت تلك المنازل عبارة عن مراكز «يتوقف فيها

الأفراد للتزود بالمعلومات عن اليهودية وتقام فيها مراسم وطقوس أيام السبت والأعياد تلقى فيها المحاضرات والدروس. وبُعث ببعض الشباب الحسيديم إلى المدن الجامعية والشوارع في أمريكا لاستوقاف المارة من اليهود وإقناعهم بأن يمارسوا التقاليد اليهودية في العلن مثل ارتداء تميمة الصلاة والصلاة جهراً. وكانت الفكرة من وراء هذا هو أن تلمس «الشرارة» المقدسة التي تسكن روح كل يهودى وتوقظ قداسته / ها الجوهرية.

وكان الربى متآلفاً مع العالم. فقد كانت معلوماته العلمية تتعايش مع المنطق الأسطورى الروحانى لحسيديم حبد. ولم تُسرق منه رؤيته للشرارات المقدسة. وكان له أن يطور نفسه كمخلّص قوى ويكسب انتخابات قيادة حبد بأن زعم أنه على اتصال روحانى مع الربى السادس. وكان منطق العقل ومنطق الأسطورة الروحانى يكملان أحدهما الآخر كمصدر للبصيرة فى روحانيته. وكان يفسر الإنجيل حرفياً كأى أصولى بروتستانتى، ويعتقد أن الرب قد خلق العالم فى ستة أيام منذ أقل من ستة آلاف عام. إلا أنه كان يؤمن أيضاً بأن اكتشافات العلم الحديث عن الصلة بين الجسد والروح، أو المادة والطاقة تؤدى بالبشرية إلى تقدير أفضل للوحدة العضوية للحقيقة، (كلية) الأمر الذى سيحدو بالبشر لأن يتوجهوا نحو التوحيد. وكانت حملته الهائلة منظمة وفقاً لأساليب حديثة، وعرف كيف يستغل مواهبه فى التحدث مع الرجال والنساء والمعلمنين. إلا أنه يبدو أن أساطير وتصوف حبد هى التى منحت اللوبافيتش الثقة ليقوموا بهجمتهم فى العالم بدلاً من الانسحاب الدفاعى منه. فقد تحول الربيون فى العصر الحديث إلى تضاد مع روح التنوير بيد أن الربى شنور زلمان، مؤسس حبد وأول ربى لها قد ساعد الحسيديم على أن يطوروا نظرة إيجابية على عالم اليوم. وبدا الربى السابع وقد عاد إلى هذه الروح الأصلية واستعمل مقدراته العقلانية فى سياق أسطورى كما فعل زلمان فقد رفض حبد أن يقبلوا الفصل بين المقدس والدنيوى لأن كل شىء مهما كان وضيعاً أو أرضياً يحمل شرارة المقدس. فليس ثمة ما يدعى «يهودياً علمانياً»، فحتى الأغيار لديهم استعداد للقداسة. ثم بدأ الربى السابع فى آخر أيامه مهمة باتجاه الأغيار من الأمريكيين ليقينه من اقتراب «الأيام الأخيرة». وقال عنهم إنهم عاملوا اليهود معاملة حسنة. وقد عانى اللوبافيتش فى العصر الحديث، وواجهوا

الفناء إلا أن الربى علمهم ألا يروا حالة النفي والاغتراب «الجالوت» في ضوء شيطاني كلي، وألا يضمروا أوهام البغض والانتقام، بل أن ينظروا إلى العالم من منطلق أنهم باستطاعتهم إدخال المقدس إليه مرة أخرى.

وسيقوم الأصوليون البروتستانت في الولايات المتحدة فيما بعد بهجمة مضادة ضد الحداثة التي هزمتهم. إلا أنهم كانوا يركزون، في الفترة التي نناقشها، على خلق ثقافتهم الدفاعية المضادة. فبعد محاكمة سكوبس انسحب الأصوليون البروتستانت من المشهد العام إلى كنائسهم وكلياتهم. وافترض المسيحيون الليبراليون أن مأزق الأصولية قد انتهى. وبدت الجماعات الأصولية، بنهاية الحرب العالمية الثانية هامشية وغير هامة، واجتذبت طوائف التيار الرئيسي أغلبية المؤمنين. إلا أن الأصوليين، بدلاً من أن يختفوا، كانوا يؤسسون لأنفسهم جذوراً قوية على المستوى المحلي. وكان مازال عدد لا بأس به من المحافظين في طوائف التيار الرئيسي. وكانوا قد فقدوا الأمل في التخلص من الليبراليين؛ إلا أنهم لم يتخلوا عن اعتقادهم في «الأصول» وابتعدوا عن الأغلبية. وأقام الأفراد الأكثر راديكالية بينهم كنائسهم خاصة «قبل الألفية» واعتقدوا أن انعزالهم عن الليبراليين الكفرة في فترة انتظارهم للحظة النشوة الكبرى (الاختطاف إلى السماء) كان واجباً مقدساً. وبدءوا في تكوين شبكات وتنظيمات جديدة تحت توجيه من جيل جديد من الإنجيليين. وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين كان هناك خمسون كلية إنجيل أصولية على الأقل في الولايات المتحدة. وتم إنشاء ست وعشرين أخرى في خلال سنوات الكساد. وكانت كلية ويتون Wheaton الأصولية في إلينوى أسرع كلية للعلوم الإنسانية نموا في الولايات المتحدة. وكوّن الأصوليون أيضاً إمبراطوريتهم للنشر والإذاعة. وحينما وصل التليفزيون في الخمسينيات بدأ بيلي جراهام، وركس هامبارد، وأورال روبرتس حياتهم كرجال دين شباب بالتبشير عبر التليفزيون، ليحلوا محل المبشرين الإحيائيين المتنقلين القدامى. ووصلت الشبكات الإذاعية غير المرئية الضخمة، الأصولين بعضهم ببعض في طول البلاد وعرضها. فقد شعروا أنهم (غرباء) ودُفع بهم إلى هامش المجتمع إلا أن كلياتهم الجديدة ومحطاتهم الإذاعية والتليفزيونية أمدتهم بوطن في عالم معاد.

وكانت كليات الأصوليين البروتستانت معاقل آمنة مقدسة وسط الدنيوية

المحيطة أرسوا فيها قواعد ثقافتهم المضادة. وحاولوا تأسيس القداسة بواسطة الفصل أو العزل. وكانت كلية بوب چونز التي أنشئت في فلوريدا عام ١٩٢٧ ثم انتقلت إلى تينسي، قبل أن تجد موطنها النهائي في جرنڤيل بكارولينا الجنوبية، مثالاً ونموذجاً لروح المؤسسات الأصولية. ولم يكن المؤسس، وهو إنجيلي ينتمي إلى أوائل القرن العشرين، مفكراً، لكنه أراد إنشاء ما أسماه مدرسة «آمنة» تساعد الشباب على الاحتفاظ بعقيدتهم وهم يعدون أنفسهم لمحاربة الإلحاد الذي هيمن على الجامعات العلمانية، كما اعتقدوا. وكان الطلبة هناك يتعلمون المسيحية المعقولة إلى جانب العلوم الإنسانية. وكان على كل طالب دراسة مقرر إنجيلي واحد على الأقل وأن يحضر الصلاة في كنيسة الكلية وأن يتمسك بأسلوب الحياة «المسيحية» مع التقيد بقواعد صارمة في الزي والتفاعل الاجتماعي، ولقاءات الإناث مع الذكور. وأصر بوب چونز على اعتبار العصيان والخروج على الجماعة خطايا لا تغتفر ليس ثمة تساهل بشأنها. وكان على هيئة التدريس والطلبة على السواء الالتزام بالقواعد. وكانت جامعة بوب چونز عالماً في حد ذاته. واتخذت القرار الصعب في عدم السعي وراء الاعتراف الأكاديمي بها من منطلق أن أية تنازلات مع المؤسسة العلمانية خطيئة. ومكنت هذه التضحية الجامعة من فرض تحكم شديد على القبول والمناهج ومصادر المكتبة.

وكان هذا التنظيم جوهرياً إذ علّم طلبة جامعة بوب چونز أنهم في حالة حرب. ويوضح كتيب عن الجامعة أنها «ضد كل الهجمات الإلحادية والغنوصية وهجمات أصحاب التوجهات الإنسانية على الكتاب المقدس». ومن ثم، جميع مواقف «ما يسمى بالحداثة» و«الليبرالية» و«الأرثوذكسية الجديدة» والتنازلات اللاإنجيلية «للإنجيليين الجدد» والممارسات اللاإنجيلية «للكارزميين». فقد اعتزل الطلبة وأعضاء هيئة التدريس العالم ليحموا عقيدتهم. وطبقاً لبوب چونز الابن، فإن هذه العزلة هي «الأساس والقاعدة لشهادة وبيّنة أصولية». ومن معقل العقيدة هذا، يدافع الطلبة دفاعاً قتالياً عن «المرجعية الإنجيلية وعصمتها من الخطأ بأن يهاجموا «أعداء العقيدة». ولم يكن لجامعة بوب چونز تأثير كبير على الحياة الأكاديمية الأمريكية، إلا أنها ذات تأثير كبير على الأمة المسيحية. فقد أصبحت هذه الجامعة أكبر مصادر الإمداد بالمدرسين الأصوليين في البلاد، ويعرف عن خريجيها قوة التحكم في

النفس والدافع الذاتي، وإن كان يعوزهم سعة المعرفة.

وكانت كليات الإنجيل والجامعات الأصولية التي أنشئت في تلك السنوات قلاعاً انفصالية مثل يشيفات اليهود. فقد شعر الأصوليون أن عقيدتهم معرضة للخطر، إذ تم إبعادهم عن مركز الحياة الأمريكية، وتعلموا أن يعتبروا أنفسهم «خارج البوابة». وكانت نزعتهم القتالية تعبيراً عن غضب عميق. وطفا هذا الغضب في مقولات المسيحيين المتطرفين في تلك الفترة الذين عبروا عن المخاوف والكراهية والتحيزات المرتبطة بقطاعات السكان الأشد تهميشاً. فقد سافر جيرالد وينرود إلى ألمانيا النازية في الثلاثينيات وعاد وهو مصمم على فضح «الخطر اليهودي» للشعب الأمريكي. وكان وينرود معمدانياً قام بتنظيم جماعة المدافعين عن العقيدة المسيحية لمجابهة تدريس نظرية التطور أثناء العشرينيات. ولدى عودته من ألمانيا أيضاً أدان «صفقة روزفلت الجديدة مع اليهود» على أنها شيطانية. كما هاجم وينرود وكارل ماكانتاير وبيل جيمس هارجس كل توجه «ليبرالي في الولايات المتحدة». وألقى الأصوليون مسئولية مكانة المسيحيين الحق المهمشة على الليبرالين من كل الألوان سواء كانوا علمانيين أو مسيحيين. وكان الأصوليون قد بدءوا يتجهون سياسياً نحو اليمين. ففي القرن التاسع عشر كان الإنجيليون ينظرون إلي الوطنية على أنها وثنية. والآن، أصبح الدفاع عن أسلوب الحياة الأمريكية واجباً مقدساً. واعتبر هارجس، مؤسس الصليبية المسيحية، وهي مجموعة سياسية مضادة للشيوعية، الاتحاد السوفيتي شيطاناً. وقاتل دون كلل ضد ما رأى أنه تسلل شيوعي مثل الصحافة الليبرالية والمعلمين اليساريين والمحكمة العليا. ورأى هذه الأشياء جزءاً من مؤامرة لتحويل أمريكا «حمراء». ورأى مكانتاير، الذي انفصل عن الكنيسة المشيخانية ليؤسس كنيسة الإنجيل المشيخانية ومعهد لاهوت العقيدة، الأعداء يتربصون في كل مكان. وفي نظره، كانت الطوائف التي تتبع الخط الرئيسي جزءاً من مؤامرة شيطانية لتدمير المسيحية في أمريكا. كما لحق مكانتاير في الخمسينيات بحملة جوزيف مكارثي الصليبية ضد الشيوعية. ورغم أن الأصوليين لم يكونوا هم النمط؛ إلا أنهم كانوا مؤثرين. فبحلول عام ١٩٣٤ بلغ عدد المشتركين في مجلة وينرود «دفندر مجازين» ٦٠٠.٠٠٠ مشترك. وابتاع مائة وعشرون ألفاً إصدار مكانتاير «كريستيان

بيكونت. ووصل مكانتاير إلى آلاف أكثر عن طريق برنامجه الإذاعي «ساعة القرن العشرين المسيحية» الذى أدان فيه المسيحين جميعهم ممن لا يتبعون لاهوت مُقته، وكل رجال الدين الذين «قد يبدون محبين ومسيحيين للذين لا يعلمون، إلا أنهم فى حقيقة أمرهم ملحدون، وشيوعيون، يسفهون الإنجيل، ويحتقرون الأهل ويسبون. فهم أبناء كائنات شوهاء ذات عيون خضراء، يغلّهم الجنس».

وأضحت الأصولية ديانة غضب، إلا أن لهذا الغضب جذورة في الخوف العميق كما هو الحال في الحريدية اليهودية. واتضح هذا فى مذهب قبل الألفية التى كانت قد أصبحت من الحركات التي تميزت بها هذه الفترة. فقد كان قبل الألفيين فى وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية هم من يدعون أنفسهم بالأصوليين، أما المسيحيون المحافظون الآخرون من أمثال بيلى جراهام، فقد فضلوا تسمية أنفسهم مبشرين إنجيليين؛ لأن واجب إنقاذ الأرواح فى هذه الحضارة العفنة يقتضى وجود درجة ما من التعاون مع المسيحيين الآخرين أياً كانت عقائدهم الكهنوتية. أما الأصوليون الحق، فأجبروا على الفصل والتمييز. وبدت الحرب وكأنها تبرهن على أن تفاؤل الليبراليين ما بعد الألفيين كان وهماً؛ فقد نظر الأصوليون إلى هيئة الأمم نظرة سلبية كنظرتهم إلى عصبة الأمم حيث إنها ستمهد الطريق لطغيان المسيخ الدجال وللمحن التى ستلى ظهوره. فمن المحال أن يكون هناك سلام عالمى. وفى هذا الصدد كتب هربرت لوكيير قائلاً: «إن الإنجيل يتعارض مع تلك الأحلام الطوباوية. فهذه ليست آخر الحروب. فإن البشاعات الحالية ما هى إلا الجرثومة التى ستفرز معاناة أكثر هولاً». وكانت هذه الرؤية مغايرة تماماً لنظرة المؤسسة الليبرالية. فقد كان ثمة «أمتان» فى أمريكا ليس بإمكانهما المشاركة فى رؤية واحدة للعالم الحديث. فقد كرست نظرة قبل الألفيين شعور الأصوليين بالعجز التام. واعتقدوا أن القديس بطرس قد تنبأ بالقنبلة الذرية حيث قال إن السماء ستختفى، فى اليوم الآخر، محدثة صوتاً كالرعد، وستشتعل النيران فى الكون كله ويتساقط، وستحترق الأرض وما عليها. كما أنهم رأوا أنه لا سبيل إلى تفادى هذا الهلوكوست النهائى، فقال دافيد جراى بارنهاوس فى مجلة إترنيتى عام ١٩٤٥ «إن هذه الخطة النهائية تتقدم حثيثاً نحو التحقق المحتوم». وتجادل ويلبور سميث الكاتب الأصولى فى كتابه «العصر الذرى وكلمة الرب» (١٩٤٨)،

والذى كان الأفضل مبيعاً ، فقال إن القنبلة الذرية قد برهنت على أن من يؤمنون بالتفسير الحرفى كانوا دوماً على صواب. فإن التنبؤات الدقيقة عن التفجير النووى فى الكتاب المقدس قد بينت أن الإنجيل لا يخطئ وأنه يتحتم أن يُفهم حرفياً.

وقد أضفى هذا السيناريو القدرى على الأصوليين الذين كانوا قد شعروا أنهم موضع احتقار ونبذ من ثقافة التيار الرئيسى إحساساً بالثقة والسمو. فقد كانوا يملكون معلومات اختُصوا بها، وأنكرت على المسيحين العلمانيين أو الليبراليين. كما أنهم كانوا على علم بما هو حادث. فقد كانت أحداث القرن العشرين الكارثية تسير باتجاه انتصار المسيح الأخير. وعلاوة على هذا، فلن يؤثر الهلوكوست الذرى فى المؤمنين الحق، إذ إنهم سيرفعون إلى السماء قبل النهاية. أما العذابات الأخيرة فستكون حكراً على المرتدين والكفرة. ومن هذا، نخلُص إلى أن قبل الألفيين كانوا يغذون مشاعر الأسى التى أحسها الأصوليون بأن يتيحوا لهم تنمية فانتازيا انتقامية تخالف روح الكتاب المقدس. كما أن نظريتهم الإيجابية الواضحة تجاه دولة إسرائيل كانت تتعارض مع معتقداتهم.

فقد كان لليهود وضع مركزى فى رؤية جون داربى مؤسس الطائفة قبل الألفية. وكان وعد بلفور عام ١٩١٧ قد أثار نشوة الأصوليين. ونظر الواعظ الأصولى جيرى فولويل إلى إنشاء دولة إسرائيل على أنه «أعظم.. علامة مفردة تشير إلى عودة المسيح الوشيكة». ورأى يوم ١٤ مايو الذى أعلن فيه بن جوريون قيام الدولة على أنه أكثر الأيام أهمية منذ صعود المسيح إلى السماء. وأضحت مؤازرة إسرائيل فريضة. فقد كان تاريخ إسرائيل خارج نطاق التأثير والتحكم البشرى إذ إن الرب قد قرره منذ الأزل. فلن يستطيع المسيح العودة، ولن تبدأ الأيام الأخيرة. إلا إذا استوطن اليهود الأرض المقدسة.

وكان الأصوليون البروتستانتيون صهاينة متحمسين، إلا أنه كان لرؤيتهم جانبها القاتم. فقد قال جون درابى إن المسيخ الدجال سيقوم بذبح ثلثى اليهود الذين يقطنون إسرائيل فى آخر الأيام. فقد تنبأ بهذا زكريا، ولابد أن تفسر كلماته حرفياً مثل جميع التنبؤات الأخرى. وكان بعض الأصوليين قد فسروا الهلوكوست على أنها محاولة الرب الأخيرة مع اليهود كى يغيروا عقيدتهم، وأنها مجرد

مقدمة لما سيحدث فيما بعد. وضمّن جون والفورد الكاتب الأصولي غزير الإنتاج كتابه «إسرائيل والنبوءة» جدولاً تفصيلياً لاضطهاد اليهود الأخير مؤسساً إياه على خليط من النبوءات: فسيساعد المسيخ الدجال اليهود على إعادة بناء معبدهم ويقنع الكثيرين أنه المخلص؛ إلا أنهم سيرفعون صورته في المعبد الجديد ويعبدونها وبعد هذه الردة، سيتنكر ١٤٤,٠٠٠ يهودى للمسيخ الدجال ويعتنقون المسيحية ويموتون شهداء. وبعد ذلك، سيطلق المسيخ الدجال العنان لاضطهاد بشع لليهود الذين سيموت منهم أعداد رهيبة. ولن ينجو سوى عدد قليل كي يقوموا بالترحيب بالمقدم الثاني للمسيح. ففى نفس الوقت الذى احتفى فيه الأصوليون البروتستانت بمولد «إسرائيل الجديدة» كانوا يطورون فانتازيا الإبادة الجماعية لهم فى نهاية التاريخ. فقد وجدت دولة إسرائيل فقط من أجل التحقق الأبعد للمسيحية. أما مصير اليهود فى نهاية الأيام فقاتم. إذ إنهم قد كتبت عليهم المعاناة سواء قبلوا المسيح أم لم يقبلوه. ورغم أن البروتستانت الأمريكيين لم يعانوا مثل اليهود، فقد كانت رؤيتهم للحداثة قاتمة وتجعل من النهاية المأساوية قدراً حتمياً. ورغم أنهم طوروا فهمهم الحرفى «العلمى» للكتاب المقدس كاستجابة لروح العصر الحديث، إلا أنه لو كان محك الرؤية الدينية هو مساعدة المؤمنين على تنمية فضيلة التراحم العظمى، وهى من التعاليم الجوهرية فى رسائل القديس بولس، (رغم أنها لم تكن جوهر سفر الرؤيا)، فسيثبت فشل الأصولية البروتستانتية كحركة دينية، مثلما أثبتت محاكمة سكوبس قصورها علمياً. وفى الواقع، فإن قراءتهم الحرفية لفقرات منتقاة بعناية من الإنجيل، قد شجعتهم على استيعاب توجهات الحداثة اللاربانية للإبادة.

ولم يكن المسلمون قد أنتجوا بعد حركة أصولية لأن سيرورة التحديث لم تكن قد تقدمت تقدماً كافياً. وكانوا مازالوا فى مرحلة إعادة تشكيل مورثاتهم الدينية لمجابهة تحدى الحداثة الجديدة. وحاولوا توظيف الإسلام لمساعدة الناس على فهم روح العصر الحديث. وفى مصر، أتى مدرس شاب بأفكار الأفغاني وعبده ورضا، التى انحصرت إصلاحاتهم فى نطاق ضيق بين المفكرين، ونشرها بين الأفراد العاديين. وكان هذا فى حد ذاته حركة تحديث لأن المصلحين الأقدم قد تشكلوا طبقا للروح المحافظة، وكانوا، مثل الفلاسفة قبل الحداثيين نخبويين ولم يلقوا بالاً

إلى الجماهير التى تمتلك إمكانية الفكر العميق. وتمكن حسن البنا بذلك من تحويل أفكارهم الإصلاحية إلى حركة جماهيرية. فقد كان قد تلقى تعليماً حديثاً فى كلية دار العلوم بالقاهرة. وكانت أول كلية إعداد للمعلمين في القاهرة لكى توفر مدرسين في مختلف العلوم. إلا أن البنا كان أيضاً صوفياً، وظلت الممارسات والطقوس الصوفية مهمة بالنسبة له طوال حياته. ولم يكن الإيمان، بالنسبة للبنا، موافقة فكرية عن ديانة ما ،بل كان شيئاً يمكن فهمه فقط إن عاشه الفرد ومارس طقوسه. وكان يعلم أن المصريين يحتاجون العلم والتقنية الغربية، وأدرك أيضاً أنه لابد من تحديث مجتمعهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. إلا أن هذه كانت أموراً عملية وعقلانية يجب أن تسير يداً في يد مع الإصلاح النفسى والروحاني.

وقد أثرت الفوضى السياسية والاجتماعية في القاهرة على البنا ورفاقه لدرجة تبعث على البكاء في ظل وجود مأزق سياسى لا سبيل للخروج منه؛ إذ دأبت الأحزاب على الاشتباك في جدالات ومناظرات صاخبة، وكان البريطانيون الذين كانوا يتحكمون في البلاد رغم الإستقلال، يتلاعبون بالأحزاب ويسيرونها. وحينما استلم البنا وظيفته كمدرس في الإسماعيلية حيث تمركز البريطانيون، أثر فيه ما رآه من المذلة التى يعانيها الشعب. فلم يكن للبريطانيين أو الأجانب الآخرين أى اهتمام بالسكان المحليين في زمن كانوا هم المسيطرين تماماً على اقتصاد المكان ومرافقه العامة. وسبب له التباين بين قصور البريطانيين، والزرائب التى يقطنها العمال المصريون، مشاعر الخزى. ولم يكن هذا، بالنسبة للبنا، الذى كان مسلماً ورعاً، مجرد شأن سياسى. فحال الأمة في الإسلام قيمة دينية حاسمة مثل الصياغات العقائدية المحددة في المسيحية. وأصاب البنا الأسى من جراء حال مواطنيه المزرية، بنفس الأسلوب الذى يشعر به الأصولي البروتستانتي لدى مواجهته بمساءلة حول صحة الإنجيل، أو عضو في جماعة «حماة المدينة» Neturei Karala حينما يرى فعلاً صهيونياً يدنس «الأرض المقدسة». إلا أن البنا أقلقه ابتعاد الناس عن المساجد بشكل خاص. ولم تكن سيرورة التحديث قد احتوت الأغلبية العظمى من المصريين الذين أصابهم الذهول والحيرة إزاء الأفكار الغربية التى عُرفوا بها من عديد من الصحف والمجلات والدوريات التى كانت منتشرة في القاهرة. ولم يكن بين هذه الأفكار وبين الإسلام عوامل مشتركة، كان بعضها معاديا للإسلام

بشكل مؤكد. وكان العلماء ورجال الدين قد أولوا المشهد الحديث ظهورهم ولم يكن باستطاعتهم تقديم إرشاد فاعل للناس. ولم يأت السياسيون بمحاولات لمعالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية للجماهير بشكل اطرادى. وقرر البنا وجوب فعل شيء ما، إذ لم يكن من المجدى إدارة المناقشات البليغة حول القومية والعلاقة المستقبلية بأوربا في حين أن أغلبية الناس يشعرون بالتشوش وضعف المعنويات. وطبقاً لرؤيته، كانت العودة إلى مبادئ القرآن والسنة هى السبيل الوحيد الذى يمكن بواسطته إحداث شفاء روحانى.

ونظم البنا مع بعض من أصدقائه برنامجاً لإلقاء خطب دينية مرتجلة فى المساجد والمقاهى. وخاطب مستمعيه قائلاً إن فقدانهم توازنهم يرجع إلى تأثير الغرب والتغيرات السياسية الحديثة، وإنهم لم يعودوا يفقهون دينهم. وأوضح أن الإسلام ليس مجرد قائمة من التعليمات، بل هو أسلوب كلى للحياة إذا عاشها الإنسان بإخلاص فستعود عليه مرة أخرى بالدينامية والطاقة التى امتلكها المسلمون منذ مدة طويلة، قبل أن يستعمرهم الأجانب. ولكى تستعيد الأمة قوتها، فإن على المسلمين اكتشاف أرواحهم الإسلامية. ورغم أن البنا كان فى العشرينيات من عمره إلا أن أثره كان كبيراً. فقد كان ذا تصميم وقوة شخصية ومقدرة قيادية. وذات مساء عام ١٩٢٨ أتى إلى البنا ستة عمال فى الإسماعيلية وأخبروه أن عليهم اتخاذ أفعال، فهم لا يعلمون الطريقة العملية لتحقيق مجد الإسلام وخدمة مصالح المسلمين وأنهم قد سئموا حياة الذل وأنهكتهم القيود المفروضة عليهم وضياع مكانة العرب وكرامة المسلمين الذين لا يتعدون أن يكونوا مأجورين يمتلكهم الأجانب. ولا يملكون سوى دمائهم وأرواحهم وبعض العملات النقدية ولا يعرفون طريقاً لخدمة أوطانهم ود ـهم وأمتهم.

وتأثر البنا بهذا المطلب. ثم أقـ ـم مع زائريه أن «يكونوا جنداً فى سبيل رسالة الإسلام». وولدت جمعية «الإخوان المسلمين» فى تلك الليلة. ومن هذه البداية الضئيلة نمت وانتشرت. حتى أصبح لها ألفا فرع فى أنحاء مصر عام ١٩٤٩، عام وفاة حسن البنا، وكان كل فرع يمثل ما بين ٣٠٠،٠٠٠ و ٦٠٠،٠٠٠ أخ وأخت. وكانت جماعة الإخوان هى المنظمة الوحيدة فى مصر التى تمثل جميع فئات الشعب بمن فيهم الموظفون المدنيون والطلبة والعمال المدنيون الذين كان من المتوقع

لهم أن يصبحوا قوة هامة، والفلاحون. وبنهاية الحرب العالمية الثانية كانت الجماعة قد أصبحت إحدى أقوى قوى المعارضة على الساحة السياسية.

ورغم الصور القتالية البلاغية التى ميزت خطاب الجماعة منذ الليلة الأولى لوجودها فقد أصر البنا دائماً على أنهم ليس لديهم النية في القيام بانقلاب أو الإمساك بمقاليد السلطة. فقد كان الهدف الرئيسى للجماعة هو التعليم. واعتقد البنا أنه حينما يستوعب الناس رسالة الإسلام ويسمحون لها أن تغيّرهم، ستصبح الأمة مسلمة دون حدوث انقلاب عنيف. ومنذ البدايات، صاغ البنا برنامجاً من ست نقاط. وبيّن البيان ما يدين به لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وحركة رشيد على رضا السلفية الإصلاحية.

واشتمل البرنامج عى النقاط التالية:

(١) تفسير القرآن بروح العصر.

(٢) وحدة الشعوب الإسلامية.

(٣) رفع مستوى المعيشة وتحقيق النظام والعدالة الاجتماعية.

(٤) مقاومة الأمية والفقر.

(٥) تحرير الأراضى الإسلامية من هيمنة الأجانب.

(٦) نشر السلام الإسلامى والأخوة فى أنحاء العالم.

ولم يقصد البنا أن تتوجه جماعته نحو العنف، أو الراديكالية، بل كان مهتماً بشكل خاص بإصلاح المجتمع الإسلامى الذى قوضته التجربة الاستعمارية وانتزعته من جذوره. فقد اعتاد المصريون أن ينظروا لأنفسهم على أنهم أقل شأناً من الأوربين، ولم تكن ثمة حاجة إلى هذا الاعتقاد. فقد كان لهم إرثهم الثقافى الجميل الذى يخدم مصالحهم أكثر من الأيديولوجيات المستوردة. ولذا، فلا يجوز لهم محاكاة الثورات الفرنسية والروسية لأن الرسول محمداً قد نادى بالفعل بالحاجة إلى الحرية والمساواة والإخوة والعدالة الاجتماعية منذ ١٣٠٠ عام. كما أن الشريعة الإسلامية تتوافق مع بيئة الشرق الأوسط أكثر من أى قانون أجنبى وسيظل المسلمون هجيناً ثقافياً طالما دأبوا على تقليد الآخرين

وكان على الإخوة والأخوات الأوائل أن يستعيدوا معرفتهم بالإسلام. فلم يكن ثمة طريق مختصر إلى الحرية والكرامة، فعلى المسلمين إعادة بناء أنفسهم صعوداً بدءاً من القاعدة. وطور البنا على مر السنين أسلوباً كفئاً حديثاً، كان يخضع دائماً لإعادة النظر وإعادة التقييم الذاتي. ففي عام ١٩٣٩ كان الأعضاء يقسّمون إلى «كتائب» تتكون كل منها من ثلاث مجموعات إحداها للعمال وأخرى للطلبة وثالثة لرجال الأعمال والموظفين. وكانت المجموعات تعقد اجتماعاتها مرة كل أسبوع ويقضون الليل في الصلاة معاً والتثقيف الروحاني. وحينما لم يؤت هذا النظام بالحصاد المأمول من المتطوعين، تغير هذا التنظيم في عام ١٩٤٣ إلى نظام «الأسر» التي كانت تتكون كل منها من ١٠ أفراد يكونون وحدة مسئولة عن أفعالها. وكان أعضاء الأسرة يلتقون مرة كل أسبوع، ويُعلمون أحدهم الآخر ببواطن الأمور، ويتأكدون أن جميع الأعضاء يتبعون أركان الإسلام ويتجنبون القمار والمسكرات والربا والزنا. وفي وقت كان المسلمون يتشظون فيه تحت وطأة التحديث، كان نظام الأُسر يؤكد على الصلة بين المسلمين. وكانت كل أسرة تنتمي إلى كتيبة تبقى على صلة الأسرة بالقيادة.

وكانت حركات الإصلاح المسيحية في ذلك الوقت تؤكد على التعاليم والنصوص، ويرجع هذا جزئياً إلى عقلانية الثقافة الغربية الحديثة والتي كانت ترى أن الإيمان هو اتباع مجموعة من المعتقدات. أما جماعة «الإخوان المسلمين» فكانت تُدار وفقاً للشريعة المحافظة التي كانت تساعد المسلمين على بناء النموذج الأصلي للرسول داخل أنفسهم بأن يحيوا وفق أسلوب معين، إلا أن الدعوة لأسلوب التقوى القديم كانت تتم متخفية في زى حديث. فقد كان الهدف من الشعائر والصلوات والتنظيمات الأخلاقية خلق توجه باطني نحو الله يماثل توجه الرسول. واعتقد البنا أنه لن يكون ثمة معنى للمؤسسات والإصلاحات الحديثة إلا من خلال هذا السياق الروحاني. ثم قرر في اجتماع حاشد عام ١٩٤٥ أن الوقت قد حان لإقامة برنامج إصلاح اجتماعي كانت البلاد في حاجة ماسة إليه وأهملته جميع الحكومات. وبمجرد إنشاء فرع جديد لهم، كان الإخوان يقومون ببناء مدارس للبنين ومدارس للبنات وإلى جوارهما مسجد. وأنشأوا أيضاً فرقاً للجوالة، وهي حركة كشافة حديثة حيث كان أشبال الإخوان يقومون بالتدريب الجسدي

والعملي. وبحلول الحرب العالمية الثانية كانت الجوالة قد أصبحت أقوى مجموعة شبابية في البلاد. ورُئي حينذاك أن تتبع هذه الخدمات التنظيم العصرى وأن تصبح أكثر انسيابية وكفاءة. كما أدار الإخوان مدارس مسائية للعمال وفصولاً خاصة للإعداد لامتحانات الوظائف. وأيضاً، فقد أقاموا المستوصفات والمستشفيات فى المناطق الريفية، ونشط أعضاء الجوالة في تحسين النواحي الصحية العامة ونشر الثقافة الصحية فى المناطق الفقيرة والمناطق الريفية. كما أنشأت الجمعية اتحادات نقابية وعمالية جديدة ثقفت العمال بشأن حقوقهم، وقامت بنشر الممارسات الظالمة الرهيبة ضد العمال، ونشطت فى إيجاد وظائف لهم بأن أنشأت مصانعها والصناعات الخفيفة مثل الطباعة والنسيج والإنشاءات الهندسية.

وقد اتهم أعداء الجماعة البنا دائماً بأنه قد أقام دولة داخل الدولة. وكان فى الواقع قد أنشأ ثقافة جماهيرية مضادة ناجحة أوضحت نقائص الحكومة بشكل أصبح يهددها. كما أن الجماعة لفتت الانتباه إلى إهمال الحكومة للتعليم ولشئون العمالة. وكان من دواعي القلق أيضاً أن الجماعة وحدها هي التي كان باستطاعتها اجتذاب الفلاحين بيد أن الأكثر أهمية من هذا هو أن مؤسسات الجماعة كان لها هوية إسلامية واضحة. فقد أقيمت المساجد فى مصانعها، وكان يُسمح للعمال بوقت يؤدون فيه الصلوات. وكانت ظروف العمل والأجور جيدة، اتباعاً لتعاليم الرسالة الاجتماعية للقرآن. وكان للعمال تأمينات صحية، وإجازات معقولة، وكان يحكم في الخلافات التي تنشأ بالعدل. وغدا النجاح غير العادى للجماعة برهاناً واضحاً مشيراً على أن أغلبية المصريين يريدون أن يكونوا متدينين رغم ادعاءات المفكرين والمثقفين. كما أنها برهنت على أنه باستطاعة الإسلام أن يكون تقدمياً، فلم تكن ثمة عودة عمياء إلى ممارسات القرن السابع. وكان الإخوان ينتقدون الوهابية الجديدة للمملكة العربية السعودية بشدة، ويدينون تفسيراتهم الحرفية للشريعة مثل قطع يد السارق ورجم الزناة. ولم يكن لدى الإخوان فكرة محددة عن الشكل السياسى الذى ستكون عليه الدولة فى المستقبل؛ إلا أنهم أصروا على اتباع روح الإسلام والسنة حيث يتحتم أن يكون هناك توزيع عادل للثروة. وكانت أفكارهم العامة مواكبة لنغمة العصر حيث أصروا على وجوب انتخاب الحكام (كما كان الحال في الزمن الإسلامى الأول) وكما حث على ذلك

الخلفاء الراشدون. كما يجب أن يساءل الحاكم وألا يكون مستبداً. إلا أن البنا كان يشعر دائماً أن الوقت لم يحن بعد للمناقشات المحددة حول الدولة الإسلامية، إذ إن الإعداد لهذا لم يتم. وطلب البنا ببساطة أن يُسمح لمصر أن تكون حكومتها إسلامية. فقد اختار السوفييت الشيوعية، واختار الغرب الديموقراطية، ومن ثم، يجب أن يكون للدول ذات الأغلبية الإسلامية الحق في اختيار نظام الحكم على أساس إسلامي إن أرادت ذلك، وفي أي وقت تريده.

ولم تكن الجماعة تتصف بالكمال؛ فنظراً لتوجهها نحو الجماهير، فقد كانت ذات ميول مضادة للثقافة. وكانت مقولاتها دفاعية، في الغالب، وتتسم بطابع القوامة على الدين والأخلاق. كما كانت صورة الجماعة عن الغرب التي شوهتها التجربة الاستعمارية تؤكد جشعه وطغيانه وإفلاسه الروحاني. وادعى أحد المتحدثين باسم الجماعة أن هدف الإمبريالية الغوبية الوحيد هو «إذلالنا واحتلال أراضينا والبدء في تدمير الإسلام». كما لم يكن قادة الجماعة يتساهلون في أية اختلافات بين الصفوف. فقد أصر البنا على الطاعة العمياء ولم يكن يوزع المسئوليات بالقدر الكافي. ونتيجة لهذا، لم يستطع أحد بعد وفاته ملء مكانه ودمّرت الخلافات غير المجدية بين الأعضاء الجماعة من الداخل. أما أكثر أوجه الجماعة تدميراً فكان وحدتها الإرهابية المعروفة «بالجهاز السرى»، والتي ظلت هامشية بالنسبة للجماعة ككل. ولا نملك عن الجهاز سوى المعلومات القليلة جداً نظراً لأنه كان محاطاً بقدر كبير من السرية. إلا أن ريتشارد ميتشل يقرر في دراسته التعريفية بالجماعة اعتقاده أنه بحلول عام ١٩٤٨ كان أعضاء الجهاز السرى حوالى ١٠٠٠ عضو، ولم يكن معظم الإخوان قد سمعوا شيئاً عنه حتى هذا التاريخ. فقد كان سبب وجود الجماعة بالنسبة للأغلبية العظمى من الأعضاء هو الإصلاح الاجتماعي والروحاني، وكانوا يبغضون إرهاب الجهاز. بيد أنه بمجرد أن تبدأ جماعة في ممارسة القتل باسم الله، فهي تبدأ أيضاً طريقاً عدمياً ينكر أهم القيم الدينية الأساسية.

وكانت أربعينيات القرن العشرين سنوات شديدة الاضطراب في مصر، فقد كان فشل الليبرالية الديموقراطية واضحاً، وكان معظم المصريين متشائمين بشأن النظام النيابي. فلم يفهم البريطانيون أو القوميون المصريون عدم إمكان فرض

نظام حكم حديث على بلد كان مازال إقطاعياً وزراعياً بشكل أساسي نتيجة للتحديث المتسرع والسطحي. كما أنه لم يسمح لحزب الوفد الذى فاز فى الانتخابات العامة التى أجريت فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٥٠ سبع عشرة مرة، بتولى الحكم سوى خمس مرات. وكان الوفديون يُجبرون على الاستقالة عادة بواسطة البريطانيين أو القصر. وفقد الوفد احترام الشعب عام ١٩٤٢ حينما أجبر البريطانيون رئيس الوزراء المؤيد للألمان على التنحى وأبدلوه بحكومة وفدية رأوا أنها أقل شراً. وفي القاهرة، كان ثمة جو من العنف أثناء الحرب العالمية الثانية، وسادت حالة من اليأس تسبب فيها عنصر الهزيمة المنكرة لخمسة جيوش عربية بما فيها الجيش المصرى دخلت فلسطين عقب قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. وقد برهن فقدان فلسطين وعدم اهتمام العالم الواضح بمأساة ٧٥٠,٠٠٠ لاجئ فلسطيني أُجبروا على ترك أوطانهم عام ١٩٤٨ على حالة العجز التى يعانى منها العرب فى العالم الحديث. ومازال العرب يسمون الحادث بنكبة ١٩٤٨ ويعتقدون أنها مأساة ذات أبعاد كونية واعتقد البعض، فى هذا الجو القاتم، أن الإرهاب هو «الطريق الوحيد». وكان هذا بالتأكيد هو رأى أنور السادات الذى أصبح رئيساً لجمهورية مصر فيما بعد. وقام السادات فى أواخر الأربعينيات بتكوين فرقة اغتيالات تهاجم البريطانيين فى منطقة القنال والسياسيين المصريين الذين يتعاونون مع البريطانيين ونشأت جماعة برلمانية مثل «القمصان الخضراء» المتصلين بالقصر، و«القمصان الزرقاء» المتصلين بالوفد، رأت أن العنف هو الطريق الوحيد.

وكان من المحتم إذن أن يكون لجماعة «الإخوان المسلمين»، التى كانت لاعباً رئيسياً فى المشهد السياسى المصرى، جناحها الإرهابى أيضاً. إلا أن هذا كان تطوراً مأساوياً، وليس من الواضح مدى تورط البنا نفسه فى أنشطة الجهاز السرى فقد كان دائم الإدانة لهم. إلا أن إدانته للحكومة فى تلك الفترة كانت قاسية وعنيفة. ولم يكن باستطاعة البنا التحكم فى الوحدة الإرهابية، التى أطلقت أنشطتها سلسلة من الحوادث أدت فى النهاية إلى موته ولوثت المصداقية الأخلاقية للجماعة. فقد بدأ الجهاز السرى فى مارس ١٩٤٨ حملة إرهاب بدأت بقتل القاضي أحمد الخازندار الذى كان يتمتع بالاحترام. واستمرت طوال الصيف تشن الهجمات العنيفة على حى اليهود فى القاهرة وتقصفه بالمتفجرات، حيث دمرت

ممتلكات عديدة وأصابت وقتلت عشرات الأفراد. ثم تصاعدت العمليات إلى أن وصلت إلى قتل محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء في ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٧.

وقد أدانت الجماعة هذه الاغتيالات، وأعلن البنا استنكاره الشديد لمقتل النقراشي. إلا أن إبراهيم عبد الهادي، رئيس الوزراء الجديد الذي كان محل بُغض جميع قطاعات المجتمع، انتهز الفرصة وقام بحل الجماعة التي كانت قوتها قد زادت إلى درجة كبيرة. وتم حل الجماعة، وحوصر أعضاؤها، واعتقلوا وعُذبوا. وحينما استقال عبد الهادي في آخر يوليو عام ١٩٤٩ كان هناك ما يزيد على ٤٠٠٠ شخص من أعضاء الجماعة في المعتقلات. إلا أنه في ١٢ فبراير عام ١٩٤٩ كان قد تم إطلاق النار على حسن البنا خارج مقر جماعة الشبان المسلمين، ومن المؤكد أن هذا كان بناء على أوامر رئيس الوزراء.

ثم بدأت الجماعة في إعادة تنظيم صفوفها سراً في عام ١٩٥٠، وانتخبت مرشداً جديداً هو حسن إسماعيل الهضيبي، وكان قاضياً عُرف عنه الاعتدال وكراهية العنف. إلا أن الهضيبي لم يكن مؤهلاً لهذه المهمة. فقد انفجرت الانقسامات بين القادة في غياب البنا، وبرهن الهضيبي على عدم استطاعته التحكم في الجهاز السري الذي عمل على تقويض الجماعة مرة أخرى عام ١٩٥٤.

وكان يحكم مصر في هذه الأثناء ضابط شاب مهاب الجانب هو جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠)، قاد انقلاباً عسكرياً ضد النظام القديم سيئ السمعة في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ مع مجموعة من الضباط الأحرار، وقام بالعمل على إقامة جمهورية ثورية في مصر. وتبنى ناصر قومية قتالية تختلف تماماً عن المثال الليبرالي القديم. ولم يكن القوميون العرب، خلافاً للمثقفين المصريين في العشرينيات والثلاثينيات، مولعين بالغرب، ولم يكن لهم صبر على «الليبرالية» النيابية التي فشلت فشلاً ذريعاً في الشرق الأوسط. وكان نظام ناصر اشتراكياً متحدياً. ثم بدأ في خطب ود السوفييت مع تصميمه على طرد البريطانيين نهائياً من مصر. وتحدى في مواقفه إسرائيل والغرب بدرجة شفت غليل الناس. وكانت سياسته الخارجية تقوم على الوحدة العربية وأصر على مساندة مصر للشعوب الآسيوية والإفريقية التي كانت تكافح للتحرر من الهيمنة الأوربية. وكان ناصر

أيضاً علمانياً، ولم يكن يسمح لأى شىء، بما فى ذلك الدين، بتعويق المصلحة القومية، كما رأى أنه يجب إخضاع كل شىء للدولة. وأصبح ناصر أكثر الحكام شعبية فى الشرق الأوسط، والناصرية هى الأيديولوجيا المهيمنة. إلا أنه فى تلك السنوات، كان ناصر مازال يخوض المعارك ولم يكن ذا شعبية كبيرة، ولم يكن أيضاً ليسمح لأى منافس له بالبقاء.

بيد أنه خطب ود الإخوان فى البداية. فقد كان بحاجة إليهم. وبما أنه كان يسعده استعمال الخطاب الإسلامى، فقد ساندته الجماعة. ولعبت الجوالة دوراً هاماً فى إعادة النظام بعد قيام الثورة. ثم حدث توتر أولى مبدئى، خاصة عندما أصبح من الواضح أنه رغم خطابه ذى التوجه الشعبى الإسلامى، لم يكن لديه النية لإقامة دولة إسلامية. وحينما ألح الهضيبى فى المطالبة بتطبيق مبادئ الشريعة، قام مجلس وزراء عبد الناصر بحل الجماعة مرة أخرى فى ١٥ يناير عام ١٩٥٤. ومن ثم، التجأت نواة من الجماعة إلى النشاط السرى. وبدأت الحكومة حملة لتلطيخ سمعة الجماعة بأن اتهمتهم بحيازة أسلحة غير قانونية وبالتآمر مع البريطانيين، ثم أخذ النظام يؤكد على توجهاته الإسلامية الخاصة. وكتب السادات، الذى أصبح سكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامى الذى أنشأه ناصر، سلسلة من المقالات فى صحيفة الجمهورية شبه الرسمية عن الإسلام «الحق» والإسلام «الليبرالى» الذى تتبناه الحكومة. وفى النهاية، هيئت الجماعة فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ الفرصة لعبد الناصر حينما أطلق عليه عبد اللطيف، أحد أعضاء الجماعة، النار عليه أثناء احتفال جماهيرى.

ونجا عبد الناصر من محاولة الاغتيال. وكان لشجاعته وعدم مبالاته بالرصاص تأثير السحر على شعبه. وأصبحت له حرية تدمير الجماعة كلية. وبنهاية عام ١٩٥٤ كان قد ألقى القبض على ما يربو على ألف من أعضائها وقدموا للمحاكمة. إلا أن عديدين آخرين لم تكن لهم تهمة سوى توزيع المنشورات الحماسية ضد عبد الناصر، لم يظهروا أبداً فى ساحة القضاء؛ وتعرضوا للتعذيب الجسدى والنفسى، وقضوا السنوات الخمس عشرة التالية فى معتقلات وسجون عبد الناصر. وحكم على الهضيبى بالسجن مدى الحياة، وأعدم ستة آخرون من أعضاء الجماعة. وبدا الأمر وأن ناصر قد «قصم ظهر» الجماعة وأوقف مسيرة

الحركة الإسلامية التقدمية الوحيدة فى مصر. وبدت العلمانية منتصرة خاصة بعد أن أصبح ناصر بطلاً في العالم العربى بعد أزمة السويس التى تحدى فيها الغرب بنجاح وألحق الهوان الساحق بالبريطانيين. إلا أن انتصاره على الجماعة برهن على أنه انتصار «بيروسى» أى أنه انتزع الانتصار نظير ثمن باهظ. فقد خبر أعضاء الجماعة الذين قضوا بقية أيام حكم عبد الناصر فى السجون هجمة العلمانية بأقصى درجات عدوانيتها. وسنرى كيف هجر بعض الإخوان رؤية البنا الإصلاحية أثناء سنوات الاعتقال، وطوروا أصولية جديدة تنطوى على العنف.

وكان الإيرانيون أيضاً يمرون بهجمة علمانية شرسة. فقد صعّد الشاه رضا برنامج تحديثه بأسلوب يفوق ذلك الذى جرى فى مصر أو تركيا. إذ إنه حينما تولى السلطة، كانت إيران لم تكد تبدأ بعد عملية التحديث. وكان رضا مجرداً من الرحمة فقد كان يبيد المعارضين ببساطة. وكان من أوائل من لقوا حتفهم آية الله مدرسى الذى عارض الشاه فى المجلس إذ حكم عليه بالسجن عام ١٩٢٧ ثم اغتيل عام ١٩٣٧. وتمكن رضا من جعل السلطة فى بلاده مركزية لأول مرة، إلا أنه نجح فى هذا فقط باستعمال أكثر الأساليب وحشية. فقمع الانتفاضات وأفقر القبائل الرحل التى كانت قد ظلت حتى ذلك الحين مستقلة ذاتياً. وأصلح رضا النظام القضائى فحلت ثلاث مجموعات قوانين مدنية وتجارية وجنائية محل الشريعة. كما حاول أيضاً تصنيع البلاد وإدخال أساليب الراحة والرفاهية الحديثة. فأدخلت الكهرباء على معظم المدن فى أواخر الثلاثينيات، وأنشئت بها أيضاً محطات قوى كهربائية. بيد أن قبضة السلطة خنقت نمو اقتصاد رأسمالى عدوانى حق، فقد كانت الأجور منخفضة والاستغلال مهيمناً. وأثبتت تلك الأساليب الوحشية عدم جدواها. فلم تفلح إيران فى تحقيق استقلال اقتصادى إذ إن بريطانيا ظلت تمتلك صناعة البترول المزدهرة التى لم تسهم شيئاً تقريباً فى الاقتصاد. وأجبرت إيران على الاعتماد على القروض والاستثمارات الخارجية.

وكان من المحتم أن يكون برنامج رضا التحديثى تافهاً وسطحياً. فقد فرض أعرافاً وقوانين حديثة على بُنى زراعية وهى نفس المعالجة التى فشلت فى مصر وكان لها أن تفشل أيضاً فى إيران. إذ إنه تجاهل ٩٠٪ من السكان المرتبطين بالزراعة، وظلت الأساليب الزراعية تقليدية وغير منتجة. ولم يكن ثمة إصلاح

جذرى اجتماعي. فلم يكن لدى رضا أى اهتمام بمعاناة الفقراء. وعلي حين كان نصيب الجيش ٥٠٪ من الميزانية كان ينفق على التعليم، الذى ظل ميزةً مقصورة على الأغنياء، ٤٪ فقط. وكما حدث في مصر، كانت ثمة أمتان آخذتان في النمو السريع لا تكاد تفهم إحداهما الأخرى. وكانت إحدى هاتين الأمتين تضم الصفوة المتغربنة من الطبقات العليا والمتوسطة التي استفادت من برنامج رضا التحديثي. بينما كانت الأمة الأخرى تتكون من معظم جماهير الفقراء الذين أربكتهم قومية النظام العلمانية الأمر الذى دفعهم إلى الالتجاء للعلماء طلباً للإرشاد.

وكان العلماء أنفسهم يترنحون تحت وطأة سياسة رضا العلمانية. فقد كان يكره المؤسسة الدينية، وكان مصمماً على الحد من سلطتها الكبيرة في إيران. وحاولت القومية الإيرانية التي نادى بها استيعاب الإسلام تماماً، فقد أسسها على الحضارة الفارسية القديمة للمنطقة. وحاول رضا شاه قمع احتفالات عاشوراء التي تقام على شرف سيدنا الحسين (فقد كان يعرف احتمالاتها الثورية) كما حظر على الإيرانيين الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج. وفي عام ١٩٣٠ قلّص سلطة المحاكم الشرعية. فسمح لرجال الدين بنظر قضايا الأحوال الشخصية فقط، وحوّلت جميع القضايا الأخرى للمحاكم المدنية. وكان العلماء، ولمدة قرن من الزمان، قد تمتعوا بسلطة لا ينافسهم فيها أحد. ثم أخذوا يرقبون سلطتهم وهي تتعرض للتقليص بشكل منظم. إلا أن الخوف تملك معظم العلماء بعد اغتيال مدرسي لدرجة منعتهم حتى من الاعتراض.

وتشهد قرارات رضا الخاصة بتوحيد الزى (١٩٢٨) على تفاهة وعنف سيرورة التحديث. فقد أجبر الرجال على ارتداء الزى الغربي. واستثنى من هذا القرار العلماء الذين سمح لهم بارتداء قفاطينهم وعماماتهم شريطة اجتيازهم الاختبار الذى يجيز لهم احتلال مكانتهم الدينية. ثم منعت النساء من ارتداء الحجاب، وكان الجنود ينزعون حجب النساء بحرابهم ويمزقونها إرباً في الشوارع. فقد أراد رضا لإيران أن تبدو حديثة رغم وجود الحياة التحتية المحافظة. وكان مستعداً لفعل أى شيء في سبيل تحقيق هذا. وفي أثناء احتفالات عاشوراء عام ١٩٢٩ حاصرت الشرطة المدرسة الفايزية في قم. وحينما اندفع الطلبة إلى الشارع، نزعت الشرطة عنهم أرديتهم التقليدية وأجبرتهم على ارتداء الملابس الغربية، وكان الرجال

يبغضون ارتداء القبعات الغربية ذات الحواف العريضة لأنها كانت تعوق السجود أثناء الصلاة. وفي عام ١٩٣٥ وقع حادث قبيح في ضريح الإمام الثامن في مدينة المشهد حينما أطلقت الشرطة الرصاص على الجماهير الذين قاموا بمظاهرة ضد قوانين الزى ونتج عن هذا مصرع وجرح مئات من المتظاهرين العزل في هذا المعقل المقدس. ولم يكن من المستغرب إذاً أن أخذ الإيرانيون يخشون العلمنة كسياسة قاتلة ليس هدفها فصل الدين عن الدولة القمعية (كما هو الحال في الغرب) بل إبادة الإسلام.

وكان هذا تماماً هو الجو الملائم لازدهار الأصولية. ورغم أن هذا لم يحدث في تلك الفترة، إلا أنه حدث أربعة أشياء أخرى استبقت التطورات اللاحقة. كان أول هذه الأشياء هو إيجاد الثقافة المضادة. فقد دعا ملالى قم الشيخ عبد الكريم هيرى يازدى، وهو مجتهد بارز، إلى الإقامة هناك. وكان الشيخ مصمماً على وضع قم مرة أخرى على خريطة الشيعة لأنه كان يخشى على مستقبل مدينتى كربلاء ونجف اللتين كانتا قد أصبحتا مركز الفكر الشيعي الإيراني في القرن الثامن عشر. وبعد وقت قصير من وصول الشيخ هيرى إلى قم قام البريطانيون بنفى بعض العلماء البارزين من العراق وبينهم اثنان من أكثرهم علماً، ذهب أحدهما، وهو المجتهد نينى الذى كان ينادى بالدستور، للإقامة في قم. وبدأت المدينة في الازدهار. ورممت المدارس. وبدأ المفكرون البارزون في التدريس هناك، مما دفع الطلبة مرتفعى المستوى للالتحاق بها. وكان أحد الوافدين الجدد هو آية الله سيد آقا بروجردى (١٨٧٥ - ١٩٦١) الباحث الزاهد الذى أصبح فيما بعد مرجع التقليد، والنموذج الأعلى للشيعة، وجذبت قم عدداً أكبر من الطلاب. وبالتدريج، احتلت قم مكانة النجف، إلى أن أصبحت، في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، عاصمة إيران الدينية، ومركز معارضة طهران العاصمة الملكية. إلا أنه في تلك السنوات كان ملالى قم يتمسكون بالإرث الشيعى ويبتعدون عن السياسة. فقد كان من المحتم أن يتسبب أى نشاط سياسى في غضب الشاه مما كان سيؤدى إلى سحق ازدهار قم في بدايته.

أما الحادث المصيرى الثاني فكان هو وصول الرجل الذى سيصبح أشهر ملا إيرانى إلى قم عام ١٩٢٠. فحينما انتقل الشيخ هيرى يازدى من غرب إيران إلى

ثم اصطحب معه عدداً من تلاميذه وكان أحدهم هو روح الله موسوى خمينى (١٩٠٢ - ١٩٨٩). وفي البداية، بدا خمينى شخصية هامشية، وقام بتدريس الفقه في المدرسة الفايزية. ثم تخصص فيما بعد في الأخلاقيات والتصوف (العرفان). وكانت تلك المواد هامشية مقارنة بالفقه. وعلاوة على ذلك، فقد مارس تصوف الملا صدره الذى كانت المؤسسة تنظر إليه منذ مدة طويلة بشيء من الشك. وكان يبدو مهتماً بالقضايا السياسية. ولم يكن هذا يحتسب له تقدماً في مجاله خاصة بعد أن أصبح آية الله بوروجودى، الذى كان متمسكاً بسياسة المهادنة الشيعية بصرامة، «المرجع»، وحظر على العلماء المشاركة في الأمور السياسية. وكانت تلك سنوات قلق شديد في إيران، بيد أنه رغم اهتمام خمينى الواضح بالسياسة فلم يشارك فيها مشاركة فاعلة. ثم نشر كتابه «كشف الأسرار» عام ١٩٤٤ والذى لم يلق اهتماماً كبيراً حينذاك، إلا أن الكتاب كان أول محاولة جادة له لتحدى سياسة بهلوى من منظور شيعي. ولم يكن الخمينى عند ذلك المنعطف أصولياً بأى معنى، بل مصلحاً فقط. وكان مركزه يماثل مركز المجلس الأول عام ١٩٠٦ الذى تقبل فكرة هيئة للمجتهدين لها سلطة رفض أى تشريع برلمانى يتعارض مع الشريعة. وكان خمينى يؤيد الدستور القديم وكان يحاول وضع هذا التشريع المحدث في سياق إسلامى. فقد كان يعتقد أن سلطة وضع القوانين هي من حق الله وحده. ولم يكن من المنطقى أن يطيع الشيعة حاكماً مثل أتاتورك أو رضا شاه اللذين قاما بفعل ما بوسعهما لتدمير الإسلام. إلا أنه في تلك الأيام المبكرة كان الخمينى تقليدياً لدرجة لا يستطيع معها اقتراح أن يحكم رجال الدين مباشرة. فقد كان هذا معارضاً لقرون من ممارسات الشيعة. وطبقاً لنظريته، فقد كان للمجتهدين، الذين هم رجال على قدر كبير من العلم، فرصة لاختيار سلطان من عامة الناس يعلمون عنه أنه لن يعصى القانون الإلهى أو يقمع الشعب.

وحينما نُشر الكتاب، كان البريطانيون قد أجبروا رضا شاه على التنحى لتعاطفه مع الألمان، وبرهنوا بذلك، على أنه رغم تأكيدات رضا الضوضائية على استقلاله، فقد كان مثل القاجار، خاضعا لسلطة الأوربيين. وحينما توفى رضا عام ١٩٤٤، خلفه ابنه محمد رضا (١٩١٩ - ١٩٨٠)، وكان حينذاك أكثر هدوءاً وأضعف شخصية عنه فيما بعد. وتولى محمد رضا العرش في أوقات صعبة. فقد

كانت الحرب العالمية معوّقة وممزقة لإيران. إذ توقفت الصناعة وتدهورت المعدات وانتشرت المجاعات. وكانت الطبقة الوسطى الجديدة قد بدأت في التململ والغضب من عدم وجود فرصة لها، كما كان القوميون يريدون التخلص من التسلط الأجنبي. وأخذ الغضب يتصاعد في زمن المصاعب الاقتصادية ذاك إزاء سيطرة البريطانيين على البترول. إلا أن العلماء شعروا بقدر من السعادة. فلم يكن الشاه الجديد قوياً بدرجة كافية لمعارضة مطالبهم. فسمح بعودة عروض «آلام الحسين» في عاشوراء، ورفع الحظر عن تأدية فريضة الحج، وسمح للنساء بارتداء الحجاب. وتكونت أحزاب سياسية جديدة مثل حزب توده الموالي للسوفييت، والجبهة القومية بقيادة محمد مصدق (١٨٨١ ـ ١٩٦٧) الذى كان يطالب بتأميم البترول، وأيضاً مجموعة شبه عسكرية هي فدائيو إسلام التى مارست الإرهاب على من يؤيدون الأجندة العلمانية.

وفى عام ١٩٤٥ سمح لآية الله سيد مصطفىّ كاشانى (١٨٨٢ ـ ١٩٦٢) الذى سجنه البريطانيون أثناء الحرب بالعودة إلى إيران. وخرجت الجماهير لاستقباله، وقاموا بفرش السجاد تحت سيارته. وسافرت قوافل الحافلات المحملة بألمع العلماء لمسافات طويلة للترحيب به. وخرج طلاب المدارس الذين تملكتهم الفرحة فى حشود كبيرة إلى الشوارع. وكان كاشانى المؤشر الثالث فى ذلك الوقت لأحداث المستقبل. وكان من الممكن أن تكون شعبيته غير العادية دليلاً للمراقبين ذوى البصيرة على أن الإيرانيين كانوا على استعداد لاتباع رجل من رجال الدين فى أمور السياسة بحماس أكثر كثيراً من اتباعهم لرجل من خارج المؤسسة الدينية. وكان كاشانى وخمينى يعرفان بعضهما جيداً، إلا أنهما كانا مختلفين جذرياً. فعلى حين أن الخمينى كان منظماً، وطيد العزم فى مسعاه لهدفه، كان كاشانى متقلب الأطوار، على استعداد للانحياز للحزب الفائز. كما أن بعض ممارساته لم تكن فوق مستوى الشبهات. وكان البريطانيون قد سجنوه عام ١٩٤٣ بسبب نشاطه المؤيد للألمان، إذ إن ممارسات النازيين الظالمة كانت أقل أهمية فى رأيه من احتمال مساعدتهم الإيرانيين على التخلص من الإنجليز. وكان لكاشانى أيضاً علاقات مع فدائيى إسلام. ومن ثم، أرسل إلى المنفى حينما حاول أحدهم اغتيال الشاه. وفى بيروت، ربط مصيره بحزب الجبهة القومية وأصدر فتوى فى يوليو عام ١٩٤٩

تؤيد تأميم البترول. وسمح لكاشاني بالعودة إلى إيران عام ١٩٥٠، ولقى ترحيب الأبطال للمرة الثانية. فبدأت الجموع في عشية وصوله في الاحتشاد عند مطار مهرباد. ولحق مصدق، الذى كان حزبه قد اكتسح الانتخابات نتيجة لموقفه من التأميم، بفريق كبار العلماء المرحبين بكاشاني. وحينما هبط كاشاني من الطائرة، علت ضوضاء الجماهير لدرجة تعذر معها إلقاء خطاب الترحيب به، وحينما بدأ رحلة العودة إلى منزله في طهران بلغ اهتياج الجماهير المنتشية درجة كانوا يقومون معها برفع سيارته من على الأرض أحياناً.

وكانت أزمة البترول التى اشتعلت عام ١٩٥٣ حينما اغتال فدائيو إسلام على رازمارا رئيس وزراء إيران المؤيد لشركة البترول البريطانية الفارسية وهو الحادث الحاسم الرابع في تلك السنوات. وعقب يومين من الاغتيال أوصى المجلس الحكومة بتأميم صناعة البترول، وأصبح مصدق رئيساً للوزراء بدلاً من الشخص المرشح من قبل الشاه. وقام مصدق بتأميم صناعة البترول. ورغم أن محكمة العدل الدولية أصدرت حكمها بتأييد حق إيران في تأميم مواردها الطبيعية، قامت شركات البترول البريطانية والأمريكية بفرض مقاطعة غير رسمية على البترول الإيراني. وصور الإعلام البريطاني والأمريكي مصدق على أنه سارق ومتعصب وخطير (رغم أنه وعد بالتعويضات) وشيوعي في سبيله إلى تسليم إيران إلى الاتحاد السوفيتي (رغم أن مصدق كان قومياً يهدف إلى تحرير بلاده من السيطرة الأجنبية). أما في إيران، فأصبح مصدق بطلاً، مثلما أصبح ناصر بطلاً في مصر بعد تأميم قناة السويس. وبدأ مصدق في منح نفسه سلطات أوسع على حساب الشاه. إلا أن الشاه نحاه حينما طالب بالسلطة على القوات المسلحة عام ١٩٥٢، مما نتج عنه اندلاع أعمال شغب جماهيرية صاخبة مؤيدة لمصدق، الأمر الذى أزعج الملكيين لأنهم رأوا في ذلك إيحاء بأن الإيرانيين كانوا على وشك المطالبة بقيام حكم جمهوري، وقام آية الله كاشاني بدور قيادى في تلك المظاهرات حيث اندفع في الشوارع ملتحفاً كفناً وأعلن أنه على استعداد لإعلان الجهاد على الطغيان. ومن ثم، أجبر الشاه على إعادة مصدق.

وكانت هذه هي اللحظة التى فقدت فيها الولايات المتحدة، التى كان ينظر إليها حينذاك على أنها قوة خيرة، براءتها السياسية في إيران. فبحلول عام

١٩٥٣ بدأ تأييد مصدق في الأفول. فلم يفلح أبداً في الحصول على الولاء الكامل للجيش. وبالإضافة إلى هذا، فقد بدأ الحظر البترولي في التسبب في مأزق اقتصادي خطير دفع التجار إلى التخلي عنه. كما تخلى عنه العلماء بمن فيهم كاشاني إذ كان مصدق يجهر بعلمانيته، وكان مصمماً على أن يحيل الدين إلى مجال الشئون الفردية الخاصة. وقام مصدق، منطلقاً من إحساسه بالقوة، بحل المجلس، الأمر الذي سبب التوتر لرجال الدين الشيعة الذين خشوا استبداده بالأمور. إلا أنه، في الوقت الذي تخلى فيه حلفاء مصدق القدامى عنه، سارع حزب توده الاشتراكي إلى مساندته مما أزعج الولايات المتحدة بقيادة الرئيس دوايت أيزنهاور الذي خشي انقلاباً مؤيداً للشيوعية، فعمد إلى إصدار موافقته على إسهام الولايات المتحدة في عملية آجاكس العسكرية وهي مؤامرة من تدبير المخابرات البريطانية والسي. آي. إيه للإطاحة بمصدق. إلا أن أنباء المؤامرة تسربت إلى مصدق في أغسطس عام ١٩٥٣. وطبقاً لما كان قد اتفق عليه في حالة اكتشاف المؤامرة، غادر الشاه والملكة إيران ثم عادا مرة أخرى في حماية عملاء السي. آي. إيه الذين كانوا قد نسّقوا مع المستائين من الإيرانيين وبعض قيادات الجيش لإحداث انقلاب ضد مصدق وعزله بعد ثلاثة أيام فقط من عودة الشاه. وقُدم مصدق بعد ذلك للمحاكمة العسكرية، إلا أنه دافع عن نفسه دفاعاً مجيداً لم يتمكنوا معه من الحكم عليه بالإعدام، وقضت المحكمة بتحديد إقامته في منزله بقية عمره.

ولم يكن لانقلاب ١٩٥٣ أن ينجح إن لم يكن ثمة قدر كبير من الاستياء في إيران. إلا أنه لم يكن أيضاً ليحدث لولا التدخل الأجنبي. وشعر الإيرانيون أن الولايات المتحدة، التي كانوا يعتبرونها من قبل صديقاً، قد خدعتهم وأهانتهم. فقد كانت أمريكا تتبع خطوات الروس والبريطانيين الذين دأبوا على التلاعب بالأحداث في إيران لخدمة مصالحهم. وبدا هذا واضحاً تماماً حينما عقدت معاهدة بترول جديدة عام ١٩٥٤ أعيد بمقتضاها التحكم في إنتاج البترول وتسويقه وتقاضي شركات الكارتل (اتحاد الشركات) العالمية خمسين في المائة من أرباحه.

وقد تسبب هذا في نفور وإحباط المتفهمين للأمور من الإيرانيين. فقد حاولوا السيطرة على ثرواتهم بتأييد من محكمة العدل الدولية، إلا أن هذا لم يُحترم. ورُوع آية الله كاشاني وأعلن احتجاجه. فقد كان القليلون هم المستفيدون من

المساعدات الأمريكية لإيران ولم تكن تلك المساعدات تصل إلى واحد في المائة مما يستفيده الأمريكيون من البترودولارات من إيران. وتنبأ كاشاني قائلاً «في مقابل الثلاثة مليون دولار التي ستربحها الولايات المتحدة من بترول إيران. ستفقد الأمة المقموعة كل أمل في الحرية، وستكوِّن رأياً سلبياً عن العالم الغربي».

وكانت نبوءة كاشاني، في هذا الصدد، حقة. فحينما تذكر الإيرانيون عملية آجاكس، نسوا انفضاض شعبهم من حول مصدق، واعتقدوا ضمنياً أن الولايات المتحدة فرضت بمفردها عليهم طغيان الشاه سعياً وراء مصالحها. وفي الستينيات، حينما أصبح حكم الشاه أتوقراطياً قاسياً، تزايدت المرارة. واتضحت لهم ازدواجية المعايير الأمريكية. فقد كانت أمريكا تعلن بفخر إيمانها بالحرية والديمقراطية إلا أنها كانت تدعم الشاه الذي لم يكن يسمح بأية معارضة لحكمه وينكر على شعبه الحقوق الإنسانية. وأصبحت إيران عام ١٩٥٣ حليفاً مميزاً للولايات المتحدة. وأصبحت كبلد منتج رئيسي للبترول سوقاً رئيسياً لبيع الخدمات والتقنية الأمريكية. وكان الأمريكيون ينظرون لإيران كمنجم ذهب، وعلى مر السنين كررت الولايات المتحدة النماذج السياسية التي كانت تستعملها بريطانيا مثل تكتيكات الأذرع القوية في سوق البترول والتأثير المفرط على الشاه وطلبات متزايدة للحصانة الدبلوماسية وتنازلات لرجال الأعمال وموقف متعال من الإيرانيين أنفسهم. وتدفق رجال الأعمال والمستشارون الأمريكيون على البلاد وكونوا ثروات هائلة. وكانت ثمة فروق فاضحة بين أساليب معيشتهم وحياة أغلبية الإيرانيين. وكانوا يعيشون بمعزل عن الشعب الإيراني. وبما أن أغلبيتهم كانوا يعملون بعقود مرتبطة بالعرش، فقد أصبحوا هم أنفسهم مرتبطين بشكل حتمي بالنظام، وقامت هذه السياسة، قصيرة النظر، على أساس من المصلحة الشخصية وأظهرت الولايات المتحدة في النهاية في صورة شيطانية.

وأصبحت إيران دولة ذات قطبين: فقد انتفع القلة من ازدهار الأمريكيين، بينما بقيت الأغلبية كماً مهملاً. ورأى البعض أن العصر الحديث يضفي التحرر والقوة، على حين خبره الآخرون كهجمة شيطانية. وكان ثمة خوف وكراهية وغضب يكاد يُرى. ولم يمض وقت طويل حتى قرر الأصوليون الذين كان الغضب يعتمل بشدة في نفوسهم أن العزلة عن المجتمع وإرساء ثقافة مضادة ليس بالأمر الكافي، وأن عليهم أن يقوموا بالتعبئة والهجوم المضاد.